

عرفته البشرية

صلى الله عليه وسلم

أخلاقه
وكيف نحبه وننصره؟

كتبه

أبو عبد الرحمن

هشام محمد سعيد برغش




أعظم إنسان
عرفته البشرية ﷺ



طبعة عام

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م



هاتف : ٠٠٩٦٦٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط)

فاكس : ٠٠٩٦٦٤٧٢٣٩٤١

الموقع على الإنترنت :

www.madaralwatan.com

البريد الإلكتروني :

pop@madaralwatan.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خاتمِ النبيينَ، وسيِّدِ الأولين والآخرين؛ سيِّدِنا وحبيبِنا وعظيمِنا وقدوتِنا، محمدِ بنِ عبدِ الله؛

خَيْرِ البَرِيَّةِ أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا وَهْوَ أَبَرُّ بَنِي الدُّنْيَا وَأَوْفَاهَا

صاحبِ الحوضِ الموردِ، واللواءِ المعقودِ، والمقامِ المحمودِ، صاحبِ الغرَّة والتحجيلِ، المذكورِ في التوراةِ والإنجيلِ، المؤيَّدِ بجبريلَ.

خصَّه ربُّه بالإسراءِ والمِعرَاجِ، وجعلَ القَمرَ لأجلِه في انشقاقٍ، وجعل في رِيقِه وعَرَقِه البركةَ والشِّفاءَ والعلاجَ، بدعوتِه يُسْتَقَى المطرُ، وإليه انقادَ الشَّجرُ، وعليه سلَّم الجملُ والحجرُ، نُصِرَ بالرُّعبِ مسيرةَ شهرٍ، سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ.

دلائلُ نُبُوَّتِه زادت عن الحدِّ، وشمائلُه وبركاتُه لا يأتي عليها العَدُّ.

خيرُ الخلقِ في طفولتِه، وأطهرُ المطَهَّرين في شبابِه، وأنجبُ البشريَّةِ في كُهولتِه، وأتقى الناس في حياته، وأعدلُ القضاةِ في قضائِه، وأشجعُ قائدٍ في جهادِه؛ اختصَّه الله بكلِّ خلقٍ نبيلٍ؛ وطهَّرَه من كلِّ دنسٍ، وحفظه من كلِّ زللٍ، وأدَّبه فأحسنَ تأديبَه، وجعلَه على خلقٍ عظيمٍ؛ فلا يُدانيه أحدٌ في كمالِه وعظمتِه، وصدقِه وأمانتِه، وزهدِه وحيائه وعفَّتِه. وبعد...

فذلكم هو رسول الله ﷺ، الذي اعترف كلُّ مَنْ عرفَه حقَّ المعرفةِ، بعلوِّ نفسِه، وصفاءِ طبعِه، وطهارةِ قلبِه، ونُبلِ خُلُقِه، ورَجاحةِ عقلِه، وتفوقِ ذكائِه، وحضور بَديهتِه، وثباتِ عزيمتِه، ولينِ جانبِه.



أقوال المنصفين في أعظم إنسان عرفته البشرية

لا يمكن لأحدٍ طالع بعضًا من الشمائل الكريمة للرسول ﷺ، وعرف بعض أخلاقه العظيمة، وخصاله الشريفة؛ ثم لا يُظهر إعجابَه وانبهارَه بشخصيته ﷺ، فلا عجب إذن أن نجد مثل هذا الثناءَ العطرَ وتلك الشهادات المنصفة من كثير من هؤلاء ممن لم يعتنقوا الإسلام، والتي سطَّرها التاريخ على ألسنتهم وفي كتبهم وتراثهم؛ لتكون دليلاً دامغًا وحجة بالغة على عِظَمِ أخلاقه وشمائله ﷺ.

يَدِينُ لَهُ مَنْ لَمْ يَدِنْ لِخَلِيقَةٍ ... وَيَقْضِي لَهُ بِالفَضْلِ غَاوٍ وَرَاشِدُ

ولقد اعترف بذلك المنصفون من غير المسلمين:

❁ فاعترف بذلك المستشرقون؛ ومن هؤلاء:

☼ المستشرق الأمريكي (واشنجتون إيرفنج)[1]؛ حيث يقول: «كان محمد ﷺ خاتم النبيين، وأعظمَ الرسل الذين بعثهم الله تعالى؛ ليدعوا الناس إلى عبادة الله»[2].

☼ ويقول المستشرق الإسباني (جان ليك)[3] في كتابه (العرب): «لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كان محمدٌ رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة

(١) واشنجتون إيرفنج: من أعلام الكتاب الأمريكيين، الذين فاخرت بهم الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم، في القرن التاسع عشر الميلادي، ولد في عام ١٨٣٢م في مدينة واشنطن، وتوفي في عام ١٨٩٢م.

(٢) قالوا عن الإسلام، للدكتور عماد الدين خليل، ص ٩٥.

(٣) جان ليك: مستشرق أسباني شهير، ولد في عام ١٨٢٢م، وتوفي في عام ١٨٩٧م.

وشوق»[1].

☼ وتقول المستشرقة الإيطالية (لورافيشيا فاغليري)[2]: «كان محمد المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة، لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا...»[3].

☼ ويقول المستشرق الفرنسي (جوستاف لوبون)[4]: «كان محمد [ﷺ] يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر... فعامل محمد [ﷺ] قريشًا - الذين ظلوا أعداءً له عشرين سنة - بلطف وحِلم»[5].

❁ **كما اعترف بذلك الفلاسفة؛ ومن هؤلاء:**

☼ الفيلسوف الإنجليزي (جورج برناردشو)[6]؛ حيث يقول: «قرأت حياة رسول الإسلام جيدًا، مرات ومرات، فلم أجد فيها إلا الخُلُق كما ينبغي أن يكون،

---

(١) العرب، لجان ليك، ص٤٣.

(٢) لورافيشيا فاغليري: مستشرقة وباحثة إيطالية في التاريخ الإسلامي واللغة العربية، من مؤلفاتها: قواعد العربية، والإسلام، ودفاع عن الإسلام.

(٣) دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري، ترجمه منير البعلبكي، ص٧٣.

(٤) جوستاف لوبون: مستشرق فرنسي، وُلِدَ في عام ١٨٤١م، ومن أشهر كتبه: (حضارة العرب)، الذي يُعَدُّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا؛ لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية. تُوُفِّي في عام ١٩٢١م.

(٥) حضارة العرب، جوستاف لوبون، ص١٠٤، ١٠٥، ١٠٨.

(٦) جورج برناردشو: الكاتب المسرحى الإنجليزى المشهور، إيرلندى المولد، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٥م.

وكم ذا تمنيت أن يكون الإسلام هو سبيل العالم»[1].

☼ ويقول الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل[2]: «لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير العظيم النفس المملوء رحمة وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمة وحجىً ونُهىً ـ أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه»[3].

❁ **كما اعترف بذلك المؤرخون؛ ومن هؤلاء:**

☼ المؤرخ الإنجليزي (وليام موير)[4]؛ فيقول في كتابه (حياة محمد): «لقد امتاز محمد عليه السلام بوضوح كلامه، ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس، وأحيى الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير، كما فعل نبيُّ الإسلام محمد»[5].

ويقول أيضًا، وهو يصف حياة النبيِّ ﷺ وخلقه، قائلاً: «كانت السهولة صورة

---

(١) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني معدّي، ص٧٠.

(٢) توماس كارليل: كاتب إنجليزي معروف، قيل في وصفه: إنه أكبر عقل ولدته الأمة الإنجليزية بعد شكسبير، وُلِدَ في عام ١٧٩٥م وتوفي في عام ١٨٨١م، من مؤلفاته: كتاب (الأبطال)؛ حيث عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي ﷺ.

(٣) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص١٠٦.

(٤) وليم موير: مستشرق ومؤرخ بريطاني إسكتلندي الأصل، ولد في عام ١٨١٩م، كان مديرًا لجامعة إيدنبرج. من مؤلفاته: شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمن. وصنف بالإنجليزية كتبًا في السيرة النبوية، وتاريخ الخلافة الإسلامية، وتاريخ دولة المماليك في مصر، وله مقالات في شعراء العرب، توفي في عام ١٩٠٥م.

(٥) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص١٤٢.

من حياته كلِّها، وكان الذوقُ والأدبُ من أظهرِ صفاتِه في معاملتِه لأقلِّ تابعيه؛ فالتواضعُ، والشفقةُ، والصبرُ، والإيثارُ، والجُودُ؛ صفاتٌ ملازمةٌ لشخصه، وجالبةٌ لمحبَّةِ جميعِ من حوله، فلم يُعرف عنه أنه رفض دعوة أقلِّ الناس شأنًا، ولا هديةً مهما صغرت، وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه، ولا شعر أحدٌ عنده أنه لا يختصُّه بإقبالٍ وإن كان حقيرًا.

وكان إذا لقي مَنْ يفرحُ بنجاحٍ أصابه أمسك يدَه وشاركَه سرورَه، وكان مع المصابِ والحزينِ شريكًا شديدَ العطفِ، حَسَنَ المواساة، وكان في أوقاتِ العُسْرِ يقتسم قُوتَهُ مع النَّاس، وهو دائمُ الاشتغالِ والتفكيرِ في راحةِ مَنْ حولَه وهناءتِهم»[١].

❀ كما اعترف بذلك الشعراء؛ وأرباب اللغة؛ ومن هؤلاء:

☼ الشاعر الفرنسي الشهير (لامارتين)[٢]؛ حيث يقول: «أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة وافية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود»[٣].

☼ ويقول الشاعر الألماني (جوته)[٤]: «بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا

---

(١) حياة محمد، لوليم موير، الرسول ﷺ لسعيد حوى، ص١٤٧.

(٢) لامارتين: شاعر وكاتب فرنسي مشهور، ولد في عام ١٧٩٠م، وتوفي في عام ١٨٦٩م.

(٣) السفر إلى الشرق، ص٢٧٧.

(٤) جوته: أديب ألماني شهير، ولد في فرانكفورت في عام ١٧٤٩م، وتوفي في عام ١٨٣٢م، تأثر =

الإنسان، فوجدته في النبي العربي محمدﷺ »[1].

☼ ويقول (مونتيه)[2] أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، في كتابه (محمد والقرآن): «كان محمدﷺ كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم، صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم، وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله»[3].

هذه مقتطفات من مواقف وأقوال مستشرقين وفلاسفة، ومؤرخين، وشعراء؛ أوروبيين وغربيين في حق المصطفى محمدﷺ النبي الخاتم، أردنا منها إثبات أن أبناء الحضارة الغربية يُقِرُّون بنبوَّة محمدﷺ وصفاته الحميدة وفضله المتصل إلى يوم القيامة على البشرية في جميع أقطار المعمورة.

ذلك أن التعصب الأوروبي النصراني؛ على الرغم من كونه خطًا صاعدًا باستمرار، إلا أنه وُجِد هناك منصفون، أكَّدوا الحقيقة بلا لف أو دوران.

ولكن الثقافة الغربية السائدة، والمتشبعة بقيم التعصب والعناد والتمركز حول

=

بالفكر العربي، وترجم مسرحية محمد لفولتير، ومن مؤلفاته الشهيرة: (الديوان الشرقي للشاعر الغربي).

(١) شمس الدين تسطع على الغرب، ألغريد هونكه، ص٤٦٥.

(٢) مونتيه: كاتب فرنسي الجنسية، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، ولد في عام١٨٥٦م، وتوفي في عام ١٩٢٧ م، وهو من أهم من ترجموا القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية، وله عدة مؤلفات مهمة تناول فيها الإسلام والرسولﷺ.

(٣) محمد والقرآن، ص١٨.

الذات، سعت إلى حجب هذه الحقائق، وإخفاء هذه الأصوات؛ حتى لا يتمكن الشخص الأوروبي العادي، من الاطلاع على ما أثبته أبناء جلدته، من الكبار في حق الإسلام ونبيه ورسالته العالمية الخالدة، **وذلك كله بهدف تحقيق غرضين:**

☼ **الأول: إبعاد الأوروبيين النصارى عن الإسلام؛** الذي دلل على قدرته على التغلغل في النفوس وملامسة صوت الفطرة في الإنسان؛ فهو يخيف الغرب المتوجس من تراجع عدد معتنقي النصرانية في العالم برغم ما ينفقه من الأموال والوقت لتنصير الشعوب.

يقول المُنصِّر المعروف لورانس براون: «وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته المدهشة».

ويقول: «إن خطر المسلمين هو الخطر العالمي الوحيد في هذا العصر، الذي يجب أن تجتمع له القوى، ويُجَيَّش له الجيوش، وتلتفت إليه الأنظار».

ويقول أيضًا: «إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية، إن المسلمين يختلفون عن اليهود في دينهم، إنه دين دعوة، إن الإسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم، وبين غير النصارى، ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل في أوروبا ـ كما يراه المبشرون ـ وهو أن المسلمين لم يكونوا يومًا ما أقلية موطوءة بالأقدام».

ثم يقول: «إننا من أجل ذلك نرى المبشرين، يَنْصُرون اليهود على المسلمين في فلسطين، لقد كنا نُخَوَّف من قبل بالخطر اليهودي، والخطر الأصفر (باليابان وتزعمها على الصين) وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده ولم يتحقق) كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفر، فإن هناك دولاً

ديمقراطية كبيرة، تتكفل بمقاومتها، ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام»[1].

☼ والغرض الثاني: ضمان استمرار الصراع بين الغرب والإسلام والقطيعة بينهما لمصلحة الصهيونية والماسونية، التي تعتبر نفسها المتضرر الأول والرئيس من أي تقاربٍ أو حوارٍ جادٍ بين الإسلام والغرب.

وفي هذه الورقات اليسيرات نكشف جانبًا من جوانب عظمته ﷺ وأخلاقه الكريمة وخصاله الشريفة؛ حرصت فيها على الاقتصار على الصحيح الثابت من قوله أو فعله ﷺ؛ ليتعرف أبناء الإسلام جانبًا مهمًا من جوانب عظمة نبيهم ﷺ، وعظيم أخلاقه ﷺ، التي تجعل حبَّه ﷺ يتمكَّن في قلوبهم؛ فيقوموا بمقتضى هذا الحبِّ؛ من البلاغ والدعوة لدينه وسنته ﷺ والنصرة له ولشريعته.

ولعلَّها تبلغ أقوامًا عُلِم منهم الإنصاف؛ فتكون سببًا لهدايتهم، وآخرين ممن تبع عن جهلٍ وتعصبٍ أعمى تلك الحملة الظالمة، والتشويه الكاذب لسيرة أعظم إنسان عرفته البشرية ﷺ؛ فيرعووا.

وسوف نتناول في هذه الورقات؛ الإشارة المجملة إلى اتصافه ﷺ بالأخلاق العظيمة، وشهادة الأمم السابقة له بذلك، ومعرفتها له بها، ثم نتناول بيان هذه الصفات بشيء من التفصيل والبيان؛ نبدأ فيها بصفاته الذاتية؛ من الصدق والأمانة والتواضع والحياء والزهد والصبر.

---

(١) التبشير والاستعمار، د/ مصطفى الخالدي، و د/ عمر فروخ، نقلاً عن مجلة البيان عدد (١٧٤) ص٩٢، والرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص٩١.

ثم نعرج إلى شيء من صفاته المتعدية؛ من الرحمة، والحلم والعفو والصفح، والعدل، والوفاء، والكرم والجود والسخاء، والشجاعة والقوة.

ثم نتعرف هديه ﷺ على وجه الخصوص مع طائفة من الذين عايشهم وكان له بهم مزيد اعتناء وحفاوة واهتمام؛ من الأهل، والأطفال والصبيان، والخدم والضعفاء والمساكين.

ونختم بسؤال: كيف ننصر هذا النبيَّ الكريم ﷺ، والإجابة عليه؛ من خلال ذكر كيفية تحقيق حقيقة محبته ﷺ، وبعض ما يجب على المحبِّ الصادق تجاه حبيبه ﷺ، وما يوجبه هذا الحبُّ من أعمال لنصرة الحبيب ﷺ.

* * *

أخلاق أعظم إنسان ﷺ

☼ كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خُلقًا وأكرمَهم وأتقاهم، وقد شهد له بذلك ربه جلَّ وعلا وكفى بها فضلاً؛ قال تعالى مادحًا وواصفًا خُلق نبيِّه الكريم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

☼ يقول خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا»[١].

☼ وتقول زوجه صفية بنت حيي رضي الله عنها: «ما رأيت أحسن خُلقًا من رسول الله ﷺ»[٢].

☼ وقالت عائشة لما سئلت رضي الله عنها، عن خلق النبي ﷺ، قالت: «كان خُلُقه القرآن»[٣].

فهذه الكلمة العظيمة من عائشة رضي الله عنها، ترشدنا إلى أن أخلاقه ﷺ هي اتباعُ القرآن، وهي الاستقامة على ما في القرآن من أوامرَ ونواهٍ، وهي التخلق بالأخلاق التي مدحها القرآن العظيم، وأثنى على أهلها، والبعد عن كل خلق ذمَّه القرآن.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «ومعنى هذا أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً له وخلقًا.... فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).
(٢) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية (٤٢٠٧)، والطبراني في الأوسط بإسناد حسن (٦/٣٤٥) كما قال الحافظ في الفتح (٦/٥٧٥).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٧٦٦) واللفظ له، ومسلم (٧٤٦).

جَبَله الله عليه من الخُلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خُلقٍ جميل»(١).

☼ وقد جاءت صفاته وخصاله الكريمة ﷺ في كتب أهل الكتاب نفسها قبل تحريفها؛ فعن عطاء ﷺ، قال: قلت لعبد الله بن عمرو: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة.

قال: «أَجَلْ، وَالله إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ؛ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا»(٢).

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

فإلى هذه الروضة الفيحاء، والجنة الغنَّاء، نتنسم عبيرَها، وننهل من معينِها.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

أدبه ﷺ مع ربه عز وجل

☼ وقد بلغ ﷺ في أدَبِه مع ربِّه ذروةَ سَنامِه، وحقَّقَ غايةَ كمالِه، بحُسْنِ صُحبَتِه مع ربِّه عزَّ وجلَّ؛ بإيقاع جميع حركاته الظاهرة والباطنة على مقتضى تعظيمه وإجلاله والحياء منه سبحانه؛ فصان معاملته ربَّه أن يشوبَها بنقيصةٍ، وصانَ قلبَه أن يلتفتَ إلى غيره، وإرادتَه أن تتعلق بغيرِ مرادِه.

☼ ولم يجاوز ﷺ ببصره ولا ببصيرته شيئًا لم يأذن له ربُّه به؛ قال تعالى في وصف حاله؛ عند ارتقائه الدرجات العلى، في رحلة المعراج: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾. [النجم: ١٧].

وزيغ البصر: التفاته جانبًا، وطغيانه: مدُّه أمامه إلى حيث ينتهي.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامضِ الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ.

فنفى ربُّه عز وجل عنه ﷺ ما يَعرِضُ للرائي الذي لا أدبَ له، بين يدي الملوك والعظماء؛ من التفاته يمينًا وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يَديه، وأخبرَ عنه بكمالِ الأدَبِ في ذلك المقامِ؛ إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يَمدَّ بصرَه إلى غير ما أُري مِنَ الآياتِ، وما هناك من العجائبِ؛ بل قامَ مقامَ العبدِ الذي أوجبَ أدبُه إطراقَه وإقبالَه على ما رأى، دُونَ التفاتِه إلى غيرِه، ودون تطلُّعِه إلى ما لم يرَه، مع ما في ذلك من ثباتِ الجأشِ وسُكونِ القلبِ وطُمَأنينَتِه[1].

وهذا غاية الكمالِ والأدبِ مع الله، الذي لا يَلحقُه فيه سواه؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٨٢)، والتبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص١٦٢، بتصرف.

إذا أُقيمتْ في مقامٍ عالٍ رفيعٍ؛ أن تتطلعَ إلى ما هو أعلى منه وفوقه[1].

☼ وبلغ من أدبه ﷺ مع ربه عزَّ وجلَّ؛ وشدة حيائه منه وإجلاله له؛ أنه ربما ترك سؤال ربِّه الشيء مع حاجته إليه، وحرصه عليه؛ ومن ذلك ما كان منه ﷺ في ليلة المعراج، في قصة مراجعته ربَّه عزَّ وجلَّ؛ ليسأله التخفيف على أمته، من الصلاة المفروضة؛ فلما أكثر الترددَ على الله يسأله التخفيف، قال لموسى عليه السلام- عندما ألحَّ عليه ليراجع ربَّه-: «اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي»[2].

وما حمله على الاستحياء إلا بالغ أدبه وحيائه ﷺ من ربِّه عزَّ وجلَّ، وإجلاله له.

☼ ومن تمام وكمال أدبه ﷺ مع ربه عز وجل؛ قيامُه بمقتضى العبودية، أكمل قيام وأتمه؛ فكان ﷺ أعبدَ الناس لربه عزَّ وجلَّ، وأكثرَهم خشيةً منه، وأشدَّهم ذكرًا له؛ لا يدع وقتًا يمر دون ذكر الله عزَّ وجلَّ وحمده وشكره والاستغفار والإنابة[3]، وهو الذي قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٨٣)، بتصرف يسير.

(٢) جزء من حديث الإسراء الطويل؛ أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، وسيأتي بمزيد من التفصيل في مبحث حيائه ﷺ.

(٣) ومن ذلك: ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ». أخرجه مسلم (٣٧٣).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ الله ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٧٣١).

وقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «وَالله إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» أخرجه البخاري (٣٦٠٧).

۞ ودفعه هذا الأدب وذلك الحيـاء؛ لأن يقـوم الليـل حتـى تفطَّـرت قـدماه، ويسجد فيدعو، وُيسَبِّح ويدعو، ويثني على الله تبارك وتعالى، ويخشع لله عزَّ وجلَّ؛ حتى يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل؛ من البكاء[1].

فلما قالت له عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ الله، أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَـكَ مَـا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فقال: «**يَا عَائِشَةُ، أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»[2].

إنَّ كمال الأدب يجعل الحييَّ الشكورَ ﷺ يَستحِي أن ينامَ عـن شـكرِ مـولاه عـزَّ وجلَّ، مع عظيم فضله وإحسانه!!

وهذا كلُّه من كريم أخلاقه ﷺ؛ فإن من تمام كريم الأخلاق؛ أن يتأدب العبد مع ربِّه المُنعِم الوهَّاب.

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

❊ ❊ ❊

---

(١) عن عبد الله بن الشِّخِّيرِ ﷺ، قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَـأَزِيزِ الْمِرْجَـلِ؛ يَعْنِـي يَبْكِي». أخرجه النسائي (١٢١٤)، وأبو داود (٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٨٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، و(تَفَطَّرَ): تتشقق.

☼ وقد بلغ ﷺ في أدَبِه مع ربِّه ذروةَ سَنامِه، وحقَّقَ غايةَ كمالِه، بحُسْنِ صُحبَتِه مع ربِّه عزَّ وجلَّ؛ بإيقاع جميع حركاته الظاهرة والباطنة على مقتضى تعظيمه وإجلاله والحياء منه سبحانه؛ فصان معاملته ربَّه أن يشوبَها بنقيصةٍ، وصانَ قلبَه أن يلتفتَ إلى غيره، وإرادتَه أن تتعلق بغيرِ مرادِه.

☼ ولم يجاوز ﷺ ببصره ولا ببصيرته شيئًا لم يأذن له ربُّه به؛ قال تعالى في وصف حاله؛ عند ارتقائه الدرجات العلى، في رحلة المعراج: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾. [النجم: ١٧].

وزيغ البصر: التفاته جانبًا، وطغيانه: مدُّه أمامه إلى حيث ينتهي.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامضِ الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ.

فنفى ربُّه عز وجل عنه ﷺ ما يَعرِضُ للرائي الذي لا أدبَ له، بين يدي الملوك والعظماء؛ من التفاته يمينًا وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يَديه، وأخبرَ عنه بكمالِ الأدَبِ في ذلك المقامِ؛ إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يَمدَّ بصرَه إلى غير ما أُري مِنَ الآياتِ، وما هناك من العجائبِ؛ بل قامَ مقامَ العبدِ الذي أوجبَ أدبُه إطراقَه وإقبالَه على ما رأى، دُونَ التفاتِه إلى غيرِه، ودون تطلُّعِه إلى ما لم يرَه، مع ما في ذلك من ثباتِ الجأشِ وسُكونِ القلبِ وطُمَأنينتِه[1].

وهذا غاية الكمالِ والأدبِ مع الله، الذي لا يَلحقُه فيه سواه؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٣٨٢)، والتبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص١٦٢، بتصرف.

والاجتباء والاختيار؟!

☼ شهد له أعدى أعدائه بالصدق والأمانة؛ فهذا النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ، شيطانٌ من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداء؛ يقول لقومه: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنَّهُ والله قَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ مَا أَتَيْتُمْ لَهُ بِحِيلَةٍ بَعْدُ؛ قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلَامًا حَدَثًا؛ أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ، وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً؛ حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ، وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ؛ قُلْتُمْ سَاحِرٌ!! لَا والله، مَا هُوَ بِسَاحِرٍ...[1].

ومثل هذا قاله الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة، وغيرهما من ألدِّ أعدائه وأشدِّهم كُرهًا وبُغضًا له[2].

☼ ولقد كانت هيئته ﷺ تدل أبلغ دلالة على مبلغ مكانته من الصدق ورسوخ قدمه فيه؛ يدرك ذلك كل من صفت فكرتُه وتجرَّد عن هواه؛ فهذا الحَبر عَبْد الله بْن سَلَامٍ رضي الله عنه يقول: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ ... فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ؛ فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ...[3]. فلم يسعه رضي الله عنه بعد ذلك إلا أن يعلن إسلامه ويتبرأ من كيد يهود.

---

(١) الرحيق المختوم (٢/ ٥٠)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٢).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٠، ٢٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٦٩). و(انْجَفَلَ): ذهبوا مسرعين. و(اسْتَبَنْتُ): استبنت.

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينةٌ   كانت بديهتُه تُنبيك بالخبرِ[1]

فلقد كان صدقه ﷺ تنبئ عنه جوارحُه ﷺ قبل أن تُنبئ عنه أقواله وأحواله؛ فاستقر في قلوب أصحابه ﵃، وقد رأوا وجهه الشريف، وخبروا أقواله وأحواله كلَّها؛ فوجدوها كلَّها صدقًا وعدلاً؛ فاستيقنوا أنه الصادق في نفسه، المصدوق فيما يجيء به عن ربِّه عزَّ وجلَّ.

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

(١) قالته أم معبد الخزاعية رضي الله عنها في وصفه . ألفية العراقي في السيرة النبوية.

أمانته ﷺ

☼ وهو بحقٍّ أمينُ أُمنَاءِ الأرضِ، وإذا عَددنا مواقفَه ﷺ في خُلُقِ الأمانة فقط لسطَّرنا صحائف.

☼ وصفةُ الأمانةِ كانت من الصفاتِ الملازِمة لأخلاق الحبيبِ المصطفى ﷺ قَبْلَ بَعْثه ومنذ نعومة أظفاره، فكان يُلقَّب بين قومه وعشيرته الأمين، وكانوا يسمونه في الجاهلية الأمين؛ فيقولون: جاء الأمين وذهب الأمين[1].

☼ وفي قصة بناء الكعبة؛ عندما تحاكم رجال قريش فيمن يضع الحجر الأسود فقالوا: «اجعلوا بينكم حكمًا. قالوا: أول رجل يطلع من الفجِّ، فجاء النبي ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين»[2].

☼ وقد التصقت به ﷺ هذه الصفة الحميدة؛ لأنه كان مثالاً كاملاً ورائعًا وفذًا لأداء الأمانة وأداء الحقوق لأربابها، في زمن ووقت عزَّ من تجد فيه مثل هذا الخلق الرفيع؛ لانتشار جميع أنواع الموبقات وسط هذا التجمع الجاهلي.

بل لقد دفعتهم تلك الثقةُ المطلقةُ بأمانته ﷺ إلى حفظِ أموالهم ونفائسِ مُدَّخراتِهم لتكون وديعة عنده؛ فلم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لثقته بصدقه وأمانته.

☼ والعجيب أن هذه الثقة ظلَّت على حالها؛ ولم يختلجهم أدنى شك في أمانته ﷺ حتى بعد معاداتهم له بسبب دعوته لهم ليؤمنوا بالله وحده!!

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٤٩٥٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢٨) في أول كتاب المناسك، وانظر: صحيح السيرة النبوية للألباني، ص٤٥.

ويالها من أمانة ما أروعها وخلق ما أعظمه!!

يجتهدون لقتله، ويجتهد هو ﷺ لرد ودائعهم وأماناتهم التي عنده في نفس اللحظة!! فيترك علي بن أبي طالب ﷺ في مكة بعد هجرته ليرد ودائع الناس التي كانت عنده[1].

☼ ولا عجب إذن أن يشهد له ﷺ بالأمانة أعداؤه قبل أصحابه!!

فهذا أبو سفيان زعيم مكة لما وقف قبل إسلامه أمام هرقل - وهو الحريص على أن يغمِطَه حقَّه، ويطعنَ فيه، بدافعِ العداء له حينذاك - لم يستطع أن يُخفيَ هذا الخلقَ العظيمَ، لما سأله هرقل عما يأمر به النبيُّ ﷺ؛ فأجابه أبو سفيان بأنه يأمر بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ[2].

☼ ويقول جعفر بن أبي طالب ﷺ، في قصته مع النجاشي ملك الحبشة، وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه؛ فكان من إجابته له قوله ﷺ: «... حَتَّى بَعَثَ الله إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ...»[3].

هكذا كان النبيُّ ﷺ معروفًا بالأمانة لدى الناس كافَّة، ممن عرفه أو سمع عنه؛ عدوًا كان أم صديقًا.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١/ ٢٨٦)، وسيرة ابن هشام (١/ ٢٣٧)، والرحيق المختوم (١/ ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨١)، وسيأتي أيضًا في خلق وفائه ﷺ بالعهد.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٤٢)، وحسن الأرناؤوط إسناده في تعليقه على المسند (٣٧/ ١٧٥)، وقال الهيثمي في المجمع(٦/ ٢٤): أخرجه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع، وذكره ابن هشام في سيرته مع الروض الأنف (٢/ ٨٧) من حديث أم سلمة بإسناد حسن كما بين ذلك د/ العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٧٤)..

ولا غَرو أن يكون ﷺ بتلك المثابة من خلق الأمانة؛ فهو أمين الله على وحيه؛ فأداه كأكمل ما يكون الأداء ﷺ.

☼ ولا غَرو أيضًا أن نجد الاهتمام البالغ منه ﷺ والحث على الأمانة، والتأكيد عليها بجميع صورها وأشكالها، بل ويربطها بالإيمان.

☼ فيقول ﷺ: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**»(١).

☼ ولم يكتف ﷺ بعموم ترغيبه في الأمانة وحثه عليها؛ بل لقد نص على الأمانة في مواضع أخرى متفرقة، تدعو الحاجة إلى الاعتناء بها، والتأكيد عليها.

☼ **فيؤكد على الأمانة في تولية أمور المسلمين تأكيدًا عظيمًا؛ ويؤكد خطورة التهاون فيها وعظيم إثمه.**

☼ فيقول ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»(٢).

☼ ويقول ﷺ محذرًا من يتشوف إليها، ولا يؤدي حق هذه الأمانة: «**إِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا**»(٣).

☼ ويقول أيضًا ﷺ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١١٩٧٥)، وابن حبان في صحيحه (١٩٤)، من حديث أنس ﷺ، وحسنه الأرناؤوط بشواهده. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢)، من حديث معقل بن يسار ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٥)، من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٣٣)، من حديث عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ ﷺ. و(الغُلُول): ما يؤخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها.

☼ فالأمانة عند الأمين ﷺ في ولايات المسلمين العامة والخاصة؛ لها شأن عظيم.

☼ وللأمانة عنده ﷺ في الأموال شأن عجيب أيضًا، لا تعرف له البشرية نظيرًا؛ فيقول ﷺ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[1].

يا له من خلقٍ لا يكون إلا من الأمين ﷺ !! إن الأمانة عنده ليست معاوضة؛ تُعطَى لمن يلتزم بمثلها؛ كلا إنها خلق ذاتي لا يقبل المساومة!!

☼ وللأمانة عند الأمين ﷺ مجالات رحبة وصور عديدة، لا يفطن لها الكثيرون، الذين يظنونها قاصرة على الأمانة في الأموال وحسب.

☼ **ومن ذلك الأمانة مع الزوج والزوجة؛ فيقول الأمين ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ؛ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»**[2].

☼ **ومن ذلك أمانة المجالس والحديث فيها؛ فيقول الأمين ﷺ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ»**[3].

☼ **ومن ذلك أمانة النصح والاستشارة؛ فيقول الأمين ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»**[4]؛ أي يجب عليه إبداء المشورة الصحيحة حسب ما يرى، وإلا كان مفرطًا في الأمانة

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٣)، والترمذي (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. و(يُفضي): كناية عن الجماع وما يتعلق به.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٩٠). و(الْتَفَتَ): المراد أنه أراد أن يكون حديثه سرًا.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٤١).

خائنًا!!.

☼ وكل ذلك وغيره كثير يدل على كمال أمانته ﷺ، وأنه بحق أمين الله على وحيه؛ فإنه لا يعرف الخيانة أبدًا؛ ليس فقط في لفظاته؛ بل وحتى في لحظاته وإشاراته!!

وهو الذي يقول- لما قال له أصحابه: ألا أشرت لنا بعينك في قتل الأسير؟!ـ: **«إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ»**[1].

☼ فليت شعري!! أين محبوه الصادقون من مثل هذا الخلق العظيم، الذي يكاد يكون قد اندثر في واقع المسلمين اليوم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الأمين ﷺ، وهو يحدث عن رفع الأمانة؟!!

فيقول ﷺ: **«يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ؛ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ؛ فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلاً أَمِينًا!!...»**[2].

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي (٤٠٦٧)، رصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣)، من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ. و(الْوَكْت): الأثر اليسير، و(المجْل): كالدّمل في اليد، و(فَنَفِطَ): تورم وانتفخ، و(مُنْتَبِرًا): منتفخًا متورمًا أو مرتفعًا.

تواضعه ﷺ

☼ كان ﷺ سيد المتواضعين، يتخلق ويتمثل بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

فكان ﷺ في ذروة الذُّرا من هذا الخلق العظيم في كل صوره وأشكاله.

☼ **أما تواضعه في ذاته الشريفة ﷺ**؛ فكان ﷺ يكره المدح، وينهى عن إطرائه ويقول: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ**»[١].

☼ وعن أنس رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله؛ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، والله مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ**»[٢].

فليت شعري!! كيف يدعي محبتَه ﷺ أقوامٌ؛ ثم هم يتجاهلون أمرَه وتحذيرَه الشديدَ من الغُلوِّ فيه؟!

☼ وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٤١)، والنسائي في الكبرى (٧١/٦ رقم ١٠٠٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٧٢). و(استهواه): دفعه إلى اتباع الهوى.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٦٩). قال النووي في شرح مسلم (١٢١/١٥): «قال العلماء: إنما قال ﷺ

☼ وعن أبي هريرة ﷺ، قال: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: «إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ»، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، قَالَ: أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولاً؟» قَالَ جِبْرِيلُ: «تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ» قَالَ: «بَلْ عَبْدًا رَسُولاً»(١).

☼ وكان يقول ﷺ: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»(٢).

☼ وكان ﷺ يجلس على الأرض، وعلى الحصير، والبساط.

فعن عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ قَالَ: كَانَ لِلنَّبِي ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا: الْغَرَّاءُ؛ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ؛ فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ الْقَصْعَةِ - يَعْنِي وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا - فَالْتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الْجِلْسَةُ؟! قَالَ النَّبِي ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا»(٣).

=

هذا تواضعًا واحترامًا لإبراهيم ﷺ لخُلَّتِه وأبوَّته، وإلا فنبينا ﷺ أفضل، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**» ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على من تقدمه، بل قاله بيانًا لما أمر ببيانه وتبليغه. ولهذا قال ﷺ: «**ولا فخر**»؛ لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة...».

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦٨٦٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٠٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (١/ ٣٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٠٧، رقم ٥٩٧٥)، وأخرجه أيضًا عبد الرزاق عن معمر في الجامع (١٠/ ٤١٧، رقم ١٩٥٥٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٨١)، وابن ماجه (٣٢٥٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٩٣). قال ابن بطال: (إنما فعل النبي ﷺ ذلك تواضعًا لله). نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٥٤١). و(جثا): جثا يجثو: إذا قعد على ركبتيه. و(عبدًا كريمًا): متواضعًا سخيًّا. و(جبارًا عنيدًا): الجبار: العاتي المتكبر، والعنيد: الجائر عن القصد، والمخالف الذي يرد الحق مع العلم

=

☼ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَجْلِسُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ...[(١)].

☼ ولما رآه رجل ارتجف من هيبته فقال ﷺ: **«هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»**[(٢)].

☼ وكان ﷺ يدعو، ويقول: **«اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[(٣)].

☼ **وأما تواضعه ﷺ لربِّه عزَّ وجلَّ**؛ فكان من أجل مظاهر تواضعه ﷺ في نفسه؛ فكان دائم الافتقار والتذلل والتمسكن بين يديه سبحانه.

☼ يقول أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَسْجُدُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ فِي جَبْهَتِهِ[(٤)].

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما، في بيان صفة خروجه ﷺ لصلاة

=

به.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٩٤)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٥٨٦)، وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة (٢١٢٥)، و(ويعتقل الشاة): أي: يجعل رجليه بين قوائمها؛ ليحلبها، إرشادًا إلى التواضع، وترك الترفع.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٤٣٦٦) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي من حديث عقبة بن عمرو رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٥٢). و(الْقَدِيدَ): اللحم المُملَّح المُجفَّف في الشمس.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٥٢)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٠٨) .

(٤) أخرجه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (١١٦٧).

الإِسْتِسْقَاءِ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَاضِعًا مُتَخَشِّعًا مُتَبَذِّلاً مُتَضَرِّعًا مُتَرَسِّلاً[1].

☼ ولما فتح الله عليه مكة؛ دخلَها خاشعًا لله، مُتَواضِعًا لـه[2]، شـاكرًا لأنعمـه، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ، يُرَجِّعُ[3]؛ يردد القراءة.

☼ **وأما تواضعه ﷺ مع أصحابه**؛ فعجيبة من عجائب أخلاقه ﷺ؛ ومواقفه في ذلك كثيرة وعديدة؛ حيث كان سَجيَّة من سَجَاياه، وخُلقًا مُلازمًا له ﷺ.

☼ فكان ﷺ يجيبُ دعوةَ الحرِّ والعبدِ، والغنيِ والفقيرِ، ويعودُ المرضى في أقصى المدينةِ، ويقبلُ عُذرَ المعتذرِ.

☼ وكان هذا هديه ﷺ في السَّفر والحضَر؛ يقول عثمانُ بنُ عفَّانَ ﷺ: إِنَّا والله، قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا وَيَغْزُو مَعَنَا،وَيُوَاسِينا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ[4].

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٦٥)، والترمذي (٥٥٨)، والنسائي (١٥٠٦)، وابن ماجه (١٢٦٦)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٥٨). و(التَّبذُّل): ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة، على جهة التواضع. و(الترسُّل): التأني في المشي، وعدم العجلة.

(٢) وروي في صفة دخوله ﷺ : وَإِنّه لَيَضَعُ رَأْسَهُ الشريف تَوَاضُعًا لله عزَّ وجلَّ، حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ الله بِهِ مِنَ الْفَتْحِ؛ حَتَّى إِنَّ شعر لحيته لَيَكَادُ يَمَسُّ وَاسِطَةَ الرَّحْلِ. الرحيق المختوم (١/ ٣٨١). وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٧)، وأبو يعلى (٣٣٩٣)، من حديث أنس ﷺ، وقال الحاكم: هذا حديث على شرط مسلم، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وتعقبهما الألباني، وضعف إسناده في تعليقه على فقه السيرة للغزالي، ص٤٠١.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٨١)، ومسلم (٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مُغَفَّل ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (٥٠٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

☼ وكَانَ ﷺ لا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ(١).

☼ وكانَ ﷺ يَأْتِي ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَزُورُهُمْ، وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ، وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ(٢).

☼ وعن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ، أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فقال رسول الله ﷺ: **«انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ»** فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا(٣).

☼ ومن تواضعه ﷺ أنه كان يجيب الدعوة ولو إلى خبز الشعير، ويقبل الهدية.

ويقول ﷺ: **«لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»**(٤).

☼ وعن أنس ﷺ، قال: كان ﷺ يُدعى إلى خُبزِ الشَّعيرِ وَالإِهَالَةِ السَّنِخَة فيجيب(٥).

☼ وَكان ﷺ يُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ عَلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ(٦).

---

(١) أخرجه النسائي (١٤١٤)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٣٤١).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٤٦)، من حديث سهل بن حُنيف ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١١٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٧٨). و(الكُراع): ما دون الرُّكْبة من الساق.

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل، ص٢٧٤، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٢٩)، و(الإِهَالَةِ السَّنِخَة): أي الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث.

(٦) جزء من حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٩٤)، وحسَّنه الهيثمي في مجمع =

☼ وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ، دَعَتْ رَسُولَ الله ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ لَهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «قُومُوا فَلأُصَلِّ لَكُمْ». قَالَ أَنَسٌ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا، قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ؛ فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَصَفَفْتُ وَالْيَتِيمَ وَرَاءَهُ، وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ[1].

فياله من خلق ما أعظمه!! فمن من الناس يرضى أن يُدعى على خبزٍ فقط؟! ومن منَّا يجيب دعوة خادمٍ أو عامل عنده؟!!

☼ وكان من تواضعه ﷺ أنه إذا ركب دابتَه لا يأنفُ من أن يُردفَ أحدًا معه عليها إنْ أمكن، وإلا تَناوبَ معهم في الركوبِ عليها.

فرَكِبَ ﷺ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ[2].

☼ وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُل ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ؛ كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ. فَقَالَ: «مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ

=

الزوائد (٨/ ٥٨٦)، وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة (٢١٢٥)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠)، ومسلم (٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٤)، ومسلم (١٧٩٨)، و(إِكَافٌ): ما يوضع على ظهر الحمار كالبرذعة، و(قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ): كساء غليظ من فدك قرب المدينة.

مِنْكُمَا»[١].

☼ فلا يكاد يخلو ﷺ من شريك له في دابته؛ يتعاقب معه، أو يُردِفه عليها، وهذا من كمال تواضعه ﷺ؛ فأي عظيم في الدنيا يقبل أن يُزاحِمَه أحدٌ في راحلتِه، أيًّا كانت قرابتُه أو محبتُه، غيرُ النبيِّ ﷺ؟!!

☼ هكذا كان ﷺ في تواضعه للمؤمنين؛ يقف مع العجوز، ويزور المريض، ويعطف على المسكين، ويصل البائس، ويواسي المستضعفين، ويداعب الأطفال، ويمازح الأهل، ويكلم الأَمَة، ويوآكل الناس، ويجلس على التراب، وينام على الثرى، ويفترش الرمل، ويتوسَّد الحصير.

☼ **وأما تواضعه ﷺ في بيته**؛ فإن المرء ليعجب من هديه ﷺ في ذلك، مع جنابه العظيم، ومقامه الكريم!!

☼ فقد سُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ؛ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ»[٢].

النبيُّ الكريمُ ﷺ وسيِّدُ ولدِ آدمَ أجمعين، يكون في خدمةِ أهلِه، ويأنفُ كثيرٌ ممن يدَّعُون محبتَه ﷺ من القيامِ بمساعدةِ أهليهم!!

☼ وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قالت: «كان يَخِيط ثوبَه، ويَخْصِف نعله، ويعمل

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٩١)، وابن حبان في صحيحه (٤٧٣٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. و(عُقْبَةُ): التناوب في الركوب؛ طائفة بعد طائفة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٦).

ما يعمل الرجالُ في بيوتِهم»[1].

☼وسُئِلتْ عَائِشَة رضي الله عنها: مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَـتْ: «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ؛ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»[2].

☼**وأما تواضعه ﷺفي ملبسه**؛ فآية أخـرى على التواضع العظيم الكامن في قلبه الشريف ﷺ- مع قدرته أن يلبس أفخر الثياب وأحسنها لو أراد - كيف لا وهـو ﷺ القائل - بأبي هو وأمي، وفداه نفسي وولدي -: «**مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُـعًا لله، وَهُـوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ دَعَاهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ؛ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا**»[3].

☼ وهو ﷺ القائل: «**الْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ**»[4]، والبذاذة: هي التواضـع في اللبـاس والرضا بالدون من الثياب[5].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٥٦٧٧)، وقال شـعيب الأرنـاؤوط: إسـناده صحيح على شرط الـشيخين، وأصـله عنـد البخـاري (٦٧٦)، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجامع (٤٩٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٦٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤١)، وصـححه الألبـاني في الـصحيحة (٦٧١).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٢٠٤)، والترمذي (٢٤٨١)، من حديث معاذ بن أنـس ﷺ، وحـسنه الألبـاني في الصحيحة (٧١٨). و(حُلَلِ الإِيمَانِ): يَعْنِي مَا يُعْطَى أَهْلُ الإِيمَانِ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ.

(٤) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، من حـديث إيـاس بـن ثعلبـة ﷺ، وصـححه الألباني في الصحيحة (٣٤١).

(٥) قاله الأصبهاني في الترغيب (١/ ٣٦)، والذهبي في تلخيص المستدرك (١/ ٢٩)، وانظر: النهايـة =

☼ فكان ﷺ يلبس ما وجده؛ فيلبس في الغالب: الشَّملةَ، والكساءَ الخَشِنَ، والبُردَ الغليظَ.

☼ فعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ كِسَاءً مُلَبَّدًا وَإِزَارًا غَلِيظًا؛ فَقَالَتْ: «قُبِضَ رُوحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ»[1].

☼ وكان أحب الثياب إليه القميص؛ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقَمِيصُ»[2].

☼ وكان إذا لبس القميصَ أطلق أزرارَه.

☼ فعن قُرَّةَ بْنِ إِيَاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي رَهْطٍ مِنْ مُزَيْنَةَ فَبَايَعْنَاهُ، وَإِنَّ قَمِيصَهُ لَمُطْلَقُ الأَزْرَارِ...[3].

=

لابن الأثير (١/ ١١٠).

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٨)، ومسلم (٢٠٨٠)، والترمذي (١٧٣٣)، واللفظ له. و(المُلَبَّد): هو المرقع من الثياب.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٥)، والترمذي (١٧٦٢)، وابن ماجه (٣٥٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٢٨).

وإنما أحبه ﷺ لما فيه من مزيد الستر؛ لإحاطته بالبدن بالخياطة، بخلاف الرداء والإزار والشَّملة ونحوها مما يشتمل به؛ مما يحتاج إلى ربط أو إمساك أو لف أو عقد؛ إذ ربما غفل عنه لابسه بخلاف القميص. أفاده المناوي في شرحه على شمائل الترمذي، بهامش جمع الوسائل شرح الشمائل، لملا علي القاري (١/ ١٠٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٨٢)، وأحمد (١٥٨١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤٥).

☼ وهـذا يدل على تواضعـه ﷺ وعدم تأنقه في ملبسه وإصلاحـه عـلى جسده الشريف ﷺ إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء، والمحمـود منها نقـاوة الثوب، والتوسط في جنسه، كما كان هـذا هديه ﷺ.

☼ ومع ما كان يلبس ﷺ من الثياب المتواضعة؛ إلا أنه كان أحرصَ الناس عـلى نقائها ونظافتها وحسن رائحتها وجمال منظرها.

☼ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَـتْ: «صَـنَعْتُ لِرَسُـولِ الله ﷺ بُـرْدَةً سَـوْدَاءَ فَلَبِسَهَا، فَلَمَّا عَرَقَ فِيهَا وَجَدَ رِيحَ الصُّوفِ؛ فَقَـذَفَهَا. قَالَـت: وَكَـانَ تُعْجِبُـهُ الـرِّيحُ الطَّيِّبَةُ»[1].

☼ ومع تواضعه ﷺ في ملبسه؛ إلا أنه كان يلبس ثيابًا حسنةً للجمعةِ والعيدين وتلقِّي الوفود[2]؛ لأن ذلك هو اللائق في هذه المحـافل والمقامـات، وهـذا من كمال هديه ﷺ.

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٧٤)، وأحمد (٢٤٤٨٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٣٦).

(٢) انظر: البخاري (٨٨٦)، ومسلم (٢٠٦٨)، وشرح النووي على مسلم (١٤/ ٣٨).

☼ وكيف لا يتصف صاحب الخلق العظيم ﷺ بالحياء، والحياء من أجلِّ مكارم الأخلاق؟!!

☼ كيف لا يتصف بذلك، والحياء من شعب الإيمان[1]، وهو خيرٌ كلُّه[2]، والحياء أبرز أخلاق دينه الذي جاء به؛ أليس هو القائل ﷺ : «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ**»[3]؟!.

☼ وقد بلغ حياؤه ﷺ الذروة العالية والقمة السامقة، يدركه المرء لأول وهلة، ويظهر أثره في وجهه الشريف؛ يقول أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ[4].

☼ ولم تكن صفة الحياء عنده ﷺ صفة طارئة، بل كانت صفة ملازمة له في كل أحيانه وأحواله؛ في ليله ونهاره، وفي سفره وإقامته، وفي بيته ومجالسه، ومع القريب والبعيد، والصديق والعدو، والعالم والجاهل.

---

(١) هو لفظ حديث أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ؛ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**» أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) هو لفظ حديث أخرجاه في الصحيحين من حديث عمران بن حصين ﷺ؛ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**» أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠)، و(خِدرها): الخدر ستر يُجعل للبكر في جانب من البيت.

☼ لقد حاز ﷺ خلقَ الحياء في أرقى صوره وأشملِها؛ فكان حَيِيًا مع ربِّه عزَّ وجلَّ، حَيِيًا مع أمته، حَيِيًا مع نفسه الشريفة ﷺ.

☼ **فأما حياؤه ﷺ مع ربِّه عزَّ وجلَّ**؛ فكان أعظم حياء وأكمله؛ وكيف لا يكون كذلك وهو القائل ﷺ: **«اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ»**[1]؟!

☼ وقد كان من أمر حيائه ﷺ، أنه كَانَ إِذَا أَرَادَ حَاجَةً لا يَرْفَعُ ثَوْبَهُ حَتَّى يَدْنُوَ مِنَ الأَرْضِ[2].

☼ ويقول ﷺ **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ؛ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ»**[3].

☼ **وأما حقيقة هذا الحياء**؛ فإنه ﷺ دلَّنا كيف يكون حياء العبد من ربِّه سبحانه؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»**.
قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ للهِ.

قَالَ: **«لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا؛**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٩٤)، وابن ماجه (١٩٢٠)، من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤)، والترمذي (١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٦)، من حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٤٠٦).

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[1].

هكذا يكون حياء العبد من ربِّه عزَّ وجلَّ، وهكذا كان حياء نبيناﷺ من ربِّه؛ بل هو أعظم من ذلك، وكيف لا وهو صاحب الخلق العظيمﷺ ؟!!

☼ ودفعه حياؤهﷺ من ربه لأن يقوم الليل حتى تفطَّرت قدماه، فلما قالت له عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ الله، أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فقال: «يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»[2].

إن الحييَّ الشَّكُورَﷺ يستحي أن ينام عن شُكرِ مولاه عزَّ وجلَّ، مع عظيم فضله وإحسانه!!

إنه حياء التقصير، وهو كحياء الملائكة الذين يُسَبِّحُون الليل والنهار لا يفترون؛ فإذا كان يوم القيامة؛ قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك[3]!

☼ ثم هو حياء الإجلال؛ فكان حياؤهﷺ من ربِّه عزَّ وجلَّ في ذلك أكمل الحياء؛ ومن ذلك ما كان منهﷺ في ليلة المعراج، في قصة مراجعته ربَّه عزَّ وجلَّ؛ ليسأله التخفيف على أمته، مما افترضه عليه من الصلوات الخمسين، التي كانت قد فرضت؛ بناء على نصيحة موسى عليه السلام له بذلك، فإنه مازال يتردد بَيْنَ موسى عليه السلام، وبَيْنَ ربِّه جلَّ وعلا، يراجع ربَّه؛ يسأله التخفيف لأمته؛ فلما أكثر

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وأحمد (٣٦٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، و(تَفَطَّرَ): تتشقق. وتقدم تخريجه.

(٣) انظر في ذكر حياء التقصير ونسبته للملائكة: تهذيب مدارج السالكين (١/ ٦٢٢).

الترددَ على الله يسأله التخفيف، قال لموسى عليه السلام: «**اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي**»[١].

وما حملَه على الاستحياء إلا بالغ حيائه ﷺ من ربِّه عزَّ وجلَّ، وإجلاله له.

☼ **وأما حياؤه ﷺ من أمته**؛ فكان في إيثارهم بأخصِّ حقوقِ نفسه وأهمِّها وراحة ضميره؛ كما في قصة بنائه ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها، ومكث بعض القوم يتحدثون في بيته بعد انتهائهم من طعام العرس، وجعل النبي ﷺ يستحيي منهم أن يقول لهم شيئًا، وآثر تحمل مشقة ذلك؛ إيثارًا لراحة أصحابه!!

حتى تولى الله عزَّ وجلَّ بنفسه بيان ذلك رحمة بنبيه ﷺ؛ وإعظامًا لحقه، وتعليمًا لعباده ما يجب عليهم لنبيه ﷺ من الأدب؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

☼ وكان من كمال حيائه ﷺ مع أمته؛ عدم التصريح لهم في وجوههم بما يكرهون؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءُ؛ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلانٍ يَقُولُ، وَلَكِنْ يَقُولُ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا**»[٢].

☼ ومن المواقف الدالة على عظيم حيائه ﷺ ما روته عَائِشَةُ رضي الله عنها، أن امْرَأَة سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا؟ فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرُ بِهَا. قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا؟ قَالَ: «**تَطَهَّرِي بِهَا**،

---

(١) جزء من حديث الإسراء الطويل؛ أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٦٤).

سُبْحَانَ اللهِ!» وَاسْتَتَرَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاجْتَذَبْتُهَا إِلَيَّ، وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ...»[1].

☼ فحمله ما اتصف به من عظيم الحياء على الإعراض عن التفصيل في هذا الأمر؛ حتى استتر من المرأة، وغطى وجهه الشريف ﷺ، حتى تولَّته أمُّ المؤمنين، لتعلقه بأمور النساء الخاصة.

☼ **وأما حياؤه ﷺ من نفسه**، والذي يكون بالعفَّة وصيانة الخلوات؛ فتقول عائشة رضي الله عنها، في وصف عفَّة لسانِه وجميلِ منطقه ﷺ: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا، وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ... »[2].

☼ وكان ﷺ يقول- معظمًا شأنَ الحياءِ-: «**الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ**»[3].

فبين ﷺ أن الحياء مقابل البذاء ولا يستقيم معه، والبذاء هو الفحش في القول.

☼ **وأما خلواته ﷺ**؛ فتروي لنا عائشة رضي الله عنها، واحدة منها؛ فتقول: افْتَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ؛ فَتَحَسَّسْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ؛ فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٦)، وأحمد (٢٥٥٦٠)، وأصله عند البخاري (٦٠٣٢)، وخرجاه من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه؛ البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٦٤٠). و(مُتَفَحِّشًا): المتفحش: البذيء وسيئ الخلق، و(صَخَّابًا): الصخب: اختلاط الأصوات وارتفاعها.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٩)، وأحمد (١٠١٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٥).

فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؛ إِنِّي لَفِي شَأْنٍ، وَإِنَّكَ لَفِي آخَرَ!!

☼ ويروي لنا عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ، موقفًا آخر؛ فيقول: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ؛ يَعْنِي يَبْكِي»[1].

ومواقفه ﷺ غير ذلك كثير؛ فهكذا كانت خلواته ﷺ!! وهكذا كان حياؤه ﷺ.

ولا شكَّ أن حياءه ﷺ من نفسه فرعٌ وثمرةٌ أيضًا عن حيائه من ربِّه، ولصيق الصلة به.

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه النسائي (١٢١٤)، وأبو داود (٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٨٤٠).

☼ وليس زهده ﷺ كأي زهد؛ وإنما هو زهد مَنْ لو أراد جبال الدنيا أن تكون له ذهبًا وفضة لكانت... زهد مَنْ عُرِضَت عليه الدنيا، وتَزَيَّنت له، وأقبلَت إليه؛ فقال: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[1]!!

☼ فلم يكن زهده ﷺ من عِوَزٍ وحاجة؛ بل كان زهدًا مختارًا، فإذا جاءه المال الكثير من الغنيمة أو الفيء؛ أنفقه كلَّه، ولم يُبق لنفسه منه شيئًا؛ إيثارًا لما عند الله، وزهدًا في الدنيا ومتاعها.

☼ ويقول ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِي مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ، قَدْرُ هَذِهِ - وأشار إلى وَبَرَةٍ مِنْ جَنْبِ بَعِيرٍ - إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ»[2].

☼ ولـمَّا جاءه مَالُ الْبَحْرَيْنِ، قَالَ: «انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ»؛ فَمَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ[3].

(١) أخرجه أحمد (٤١٩٦)، والترمذي (٢٣٧٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٣٩). و(قَالَ): قَالَ يَقِيل: نام وسط النهار.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٤١٣٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٣)، و(وَبَرَة): أي شعرة. و(مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ): أي والخمس المذكور؛ مع كونه لي؛ فهومصروفٌ في مصالحكم؛ من السلاح والخيل وغير ذلك.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٦٥)، ومسلم (٢٣١٤)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسيأتي بتمامه في مبحث كرمه وجوده ﷺ.

☼ فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، خيَّره الله تعالى، بين أن يكون ملكًا نبيًا أو يكون عبدًا رسولاً؛ فاختار أن يكون عبدًا رسولاً[١].

❀ وكان الزهد شعارَه ﷺ في كلِّ شئونه؛ في مسكنه، وفي فراشه، وفي ملبسه، وفي طعامه وشرابه.

☼ **أما مسكنه ﷺ**؛ فكان بيته ﷺ من طين، متقارب الأطراف، داني السقف.

يقول الحسن البصري رحمه الله: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ، في خلافة عثمان بن عفان، فأتناولُ سقفَها بيدي[٢].

وقال عطاء الخراساني رحمه الله، وهو فيما بين القبر والمنبر: أدركت حُجَر أزواجِ رسولِ الله ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المُسُوح من شَعر أسود[٣].

☼ **وأما فراشه ﷺ**؛ فكان ينامُ على الحصير، ليس تحته شيء غيره، فيؤثر في جنبه الشريف، حتى يبكي سيِّدُنا عمر رضي الله عنه، تأثرًا على حالِ رسولِ الله ﷺ[٤].

☼ يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ، مُضْطَجِعٌ، مُرْمَلٌ بِشَرِيطٍ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَدَخَلَ عُمَرُ، فَانْحَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ انْحِرَافَةً فَلَمْ يَرَ

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٢٠)، وابن حبان (٢١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٠٢).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٥٠٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٩).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٥٠٠)، حياة الصحابة للكاندهلوي (٤/ ١٠٥). و(المُسُح): الكساء من الشعر.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

عُمَرُ بَيْنَ جَنْبِهِ وَبَيْنَ الشَّرِيطِ ثَوْبًا، وَقَدْ أَثَّرَ الشَّرِيطُ بِجَنْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَكَى عُمَرُ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟**» قَالَ: وَاللهِ إِلَّا أَنْ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّكَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَهُمَا يَعْبَثَانِ فِي الدُّنْيَا فِيمَا يَعْبَثَانِ فِيهِ، وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالمَكَانِ الَّذِي أَرَى!

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**مَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟**» قَالَ عُمَرُ: بَلَى. قَالَ: «**فَإِنَّهُ كَذَاكَ**»[1].

☼ ويقول أَنَسٌ رضي الله عنه: مَا عَلِمْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكَلَ عَلَى سُكْرُجَةٍ قَطُّ، وَلَا خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ قَطُّ، وَلَا أَكَلَ عَلَى خِوَانٍ قَطُّ[2].

☼ **وأما ملبسه** ﷺ؛ فكان ربما لبس إزارًا ورداء فحسب؛ فعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ كِسَاءً مُلَبَّدًا وَإِزَارًا غَلِيظًا؛ فَقَالَتْ: «قُبِضَ رُوحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ»[3].

☼ **وأما طعامه وشرابه** ﷺ؛ فكان من زهده ﷺ وقلة ما بيده؛ أن النار لا توقد في

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٠٠٩)، وابن حبان في صحيحه (٦٣٦٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره. وأصله في الصحيحين؛ أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩). و(مُرْمَل): قد نُسِجَ وجهه بالسَّعَف، يقال: أرمَلْتُ النَّسج أرمُلُه: إذا باعَدْتَ بين الأشياء المنسوج بها، فهو مُرمَل. و قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٣): (مُرَمَّل) بِرَاءٍ مُهْمَلَة ثُمَّ مِيم ثَقِيلَة؛ أَيْ مَعْمُول بِالرِّمَالِ وَهِيَ حِبَال الْحُصْر الَّتِي تُضَفَّر بِهَا الأَسِرَّة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٨٦). و(السُّكْرُجَة): إناء صغير يوضع فيه المشهيات. و(الخِوَانِ): السُّفرَة المرتفعة عن الأرض.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٠٨)، ومسلم (٢٠٨٠)، والترمذي (١٧٣٣)، واللفظ له. و(المُلَبَّد): هو المرقع من الثياب.

بيته في الثلاثة أهلة في شهرين؛ فعن عروة ﷺ، قال: عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت تقول: «والله يا ابن أختي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ. فَقُلْتُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ؛ التَّمْرُ وَالْمَاءُ»[1].

☼ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان النبي ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ»[2].

☼ وكان ﷺ يربط على بطنه الحَجَر من الغَرَث[3].

☼ وخطب النعمان بن بشير ﷺ، وهو يذكر حال النبي عليه أتم الصلاة وأزكى التسليم؛ فقال: ذَكَرَ عُمَرُ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا؛ فَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ، وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ»[4].

☼ ويا له من موقف عجيب؛ أن تخلو بيوت سيد الخلق ﷺ كلُّها حتى من هذا الدَّقَل!! حتى يعجز ﷺ عن أن يُضِيفَ رجلاً جائعًا قصده؛ فيدفعه لمن يُضِيفُه!!

☼ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ. فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ. حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٦٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢١١٩).

(٣) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (٣/ ١)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني بشواهده في الصحيحة (١٦١٥). و(الغَرَث): الجوع.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٧٧)، و(الدَّقَل): رديء التمر.

فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَـا يَـا رَسُـولَ اللهِ...»[1]!!.

تخلو بيوت رسول الله ﷺ كلُّها من كلِّ شيء إلا من الماء!! أي زهد هذا؟!!

☼ فكيف إذا لم يجد فيها رسول الله ﷺ نفسه، ما يسدُّ به جوعَه؛ فيخرج من بيته علَّه يجد ما يسدُّ جوعه؟!

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هوَبِأَبِي بكْـرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالا: الْجُـوعُ يَـا رَسُـولَ اللهِ. قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا... »[2].

☼ وأما مدخراته ﷺ؛ فَمَا تَرَكَ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْـدًا وَلَا أَمَـةً وَلَا شَيْئًا، إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً[3].

☼ وقد رهـن درعـه في ثلاثين صـاعًا من شعير عند يَهُودِيٍّ، فَمَاتَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُه مَرْهُونَةٌ عِنْده[4].

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٤٥)، واللفظ لـه، و(إني مَجْهُـودٌ): أي أصـابني الجهـد؛ وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٩)، من حديث عمرو بن الحارث ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

صبره ﷺ

☼ لا يُعلم أحدٌ مرَّ به من المصائب والمصاعب والمشاقِّ والأزمات، ما مرَّ بالنبيِّ ﷺ، وهو صابرٌ محتسب.

☼ صَبَرَ على اليتم، والفقر، والجوع، والحاجة.

☼ ثُمَّ كُذِّب فصَبَرَ؛ قالوا له: شاعِرٌ كاهِنٌ ساحِرٌ مجنُونٌ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ؛ فصَبَرَ، آذَوْهُ، شَتَمُوه، سَبُّوه؛ فصَبَرَ!!

☼ مات عمُّه أبو طالب؛ فصَبَرَ، وماتت زوجتُه؛ فصَبَرَ، أخرجوه، حاربوه...؛ فصَبَرَ، وقُتل عمُّه حمزة؛ فصَبَرَ، وتُوفي ابنه؛ فصَبَرَ، ورُميَت زوجتُه الطاهرة العفيفة بالفاحشة كذبًا وبهتانًا؛ فصَبَرَ.

☼ صَبَرَ على قتل القرابة، والفتك بالأصحاب، وتشريد الأتباع، وتكالب الأعداء، وتحزُّب الخصوم، واجتماع المحاربين.

☼ وصَبَرَ على تجهُّم القريب، وتكالُبِ البعيدِ، وصَولةِ الباطلِ، وطُغْيَانِ المُكَذِّبين...

☼ صَبَرَ عن الدنيا بزينتها وزخرفها؛ فلم يتعلق منها بشيء.

☼ فهو ﷺ الصابرُ المُحتَسِبُ في كلِّ شَأنٍ من شئون حياتِه، فالصبر دِرعُه وتُرسُه وصاحبُه وحَليفُه.

كلما أزعجه كلام أعدائه؛ تذكَّر: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠].

وكلما راعه هول العدو، وأقضَّ مضجعَه تخطيطُ الكفَّار؛ تذكَّر: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

☼ وهل يُتعلَّم الصبرُ إلا منه؟! وهل يُقتدى بأحد في الصبرِ إلا به؟!

فهو مضرب المثل في سعة الصدر، وجليل الصبر، وعظيم التجمُّل، وثبات القلب، وهو إمام الصابرين، وقدوة الشاكرين ﷺ[1].

☼ **وصَبْرُ رسولِ الله ﷺ في أمر الدعوة مضربُ المثل والقدوة الحسنة**، حتى أقام الله عزَّ وجلَّ صروحَ هذا الدين .

☼ يقول ﷺ: «**لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ؛ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِعِيَالِي طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا مَا يُوَارِي إِبِطَ بِلَالٍ**»[2].

☼ وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو، عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا،فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ:﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾»[3].

☼ وذات يوم كَانَ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ؛ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض:أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ؛ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ.

يقول عبد الله بن مسعود: وَأَنَا أَنْظُرُ، لَا أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ.

---

(١) محمد ﷺ كأنك تراه، للشيخ عايض القرني، بتصرف يسير، ص١٥ .

(٢) أخرجه أحمد (١١٨٠٢)، والترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٢٥).

(٣) جزء من الآية (٢٨) في سورة غافر، والحديث أخرجه البخاري (٣٦٧٨).

قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ الله ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1].

☼ وعن أنسٍ ﷺ، قال: لقد ضربوا رسولَ الله ﷺ حتى غُشِيَ عليه، فقام أبو بكر ﷺ فجعل ينادي، ويقول: ويلكم! أَتَقْتُلونَ رجلاً أن يَقولَ ربِّيَ الله؟!! قالوا: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا ابنُ أبي قُحَافَة المجنون[2]!!

وهكذا عانى رسول الله ﷺ من قومه الشدَّة والأذى والغلظةَ والفظاظةَ، وهو صابرٌ محتسبٌ، ثم خرج إلى الطائف رجاءَ نصرة أهلِها؛ فكان موقفهم منه أشدَّ إيلامًا وأذىً لنفسه الشريفة ﷺ، وترك هذا الموقف في نفسه أعمق الجرح.

☼ فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟

قَالَ ﷺ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ.**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود، و(سَلى الجزور): السلى: هي اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة، وهي عند الآدميات تسمى مشيمة، والجزور: الواحد من الإبل، و(أشقى القوم): أكثرهم خبثًا، و(مَنَعَة): قوة وشدة.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٠)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٦٢)، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٢)، وقال: أخرجه أبو يعلى والبزار، وزاد: «فتركوه وأقبلوا على أبي بكر»، ورجاله رجال الصحيح.

فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ.

فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ؛ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

☼ ولاشك أن صَبْرَ الرسولِ ﷺ على أمرِ الدعوةِ مدعاةٌ إلى التأسِّي به، والسيرِ على نهجِه ﷺ، وعدمِ الانتصارِ للنَّفس.

☼ ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، ولم يدركوا مثلَ هذا الصبر عليهم، ولم يُقَدِّروا صفحَه عنهم؛ بل تآمروا على قتله ﷺ، فلما أجمعوا أمرهم على ذلك؛ آذنه الله بالهجرة، فهاجر إلى المدينة؛ لينتقل ﷺ إلى نوع آخر أشد من الأذى والابتلاء؛ من اليهود ومن المنافقين، الذين كانوا يكيدون له، ويحِيكُون المؤامراتِ ضده، ويتتبعون عوراتِ المسلمين، ويدلُّون المشركين عليها، ويحملون له وللمسلمين حقدًا دفينًا؛ فيقابله بمزيد من الصبر.

☼ وينتقل إلى نوع آخر من الصبر في مواجهة المشركين؛ صبر في ميادين القتال

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، و(الأخشبان): الجبلان المحيطان بمكة، وهما أبو قُبَيْس والأحمر؛ سُمِّيا بذلك لصلابتهما وغِلظ حجارتهما. والأخشب: كُلُّ جبل خَشِنٍ غليظ الحجارة.

والمنازلة، صبر على كلوم الأسنة والرماح والسيوف، إنه صبر أولي العزم من الرسل.

فلم ينفد صبره ﷺ، ولم ينثنِ عزمه، فمضى مجاهدًا صابرًا من معركة إلى أخرى ومن محنة إلى أختها.

☼ وفي يوم أحد كُسرت رَباعيته، وشُجَّ وجهه الشريف، وأثخنته الجراح - بأبي هو وأمي ونفسي وولدي - وهو صابرٌ محتسبٌ؛ يحكي عنه ابن مسعود رضي الله عنه، يقول: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[1].

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

☼ورحمته ﷺ عالمية؛ ما من أحدٍ من الجنِّ والإنسِ إلا وقد نال حظًا منها؛ المؤمنُ بالهداية، والمنافقُ بالأمن من القتل، والكافرُ بتأخير العذاب، والمعاهَدُ بدخوله في عهده وذمَّتِه.

بل إن جميع العوالم داخلة في هذه الرحمة؛ فتشمل الحيوان والطير والحشرات، بل والجمادات!!

☼ فلا جَرَمَ إذنْ؛ أن يكون هو نبيَّ الرَّحمة بحق ﷺ، وصدق الله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

☼ ولا جرم أن يخصَّه ربُّه عزَّ وجلَّ فيجمع له ﷺ اسمين من أسمائه سبحانه؛ لم يجمعهما لأحد من الأنبياء غيره؛ فقال في وصفه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال في وصف نفسه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥][(١)].

فجمع النبيُّ ﷺ بين الصفتين؛ فكان كما وصفه الله عزَّ وجلَّ؛ وقد كان يُدرك فيه كلُّ مَنْ عَاشَرَه ﷺ هذين الوصفين، كما قال مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ رضي الله عنه: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا رَأَى شَوْقَنَا إِلَى أَهَالِينَا قَالَ: «ارْجِعُوا فَكُونُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ...»[(٢)].

---

(١) قاله الحسين بن الفضلِ؛ انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨)، ومسلم (٦٧٤).

☼ وشواهد رحمته ﷺ يضيق بها الحصر؛ حيث كانت ملازمة له لَا تنفكُّ عنه في قول أو فعل، حاضرة في حركاته؛ بل وفي سكناته أيضًا، ويقول ﷺ مؤكدًا هذه الحقيقة: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[1].

فأما رحمته ﷺ بأمته؛ فتتجلى فيها أروع صور الرحمة البشرية على الإطلاق:

☼ **ففي العبادة**؛ كان حريصًا أشدَّ الحرصِ على رفع الحرجِ والمشقةِ عنهم، وألا يكلفوا أنفسَهم فوق طاقتهم، ويقول لهم: «**عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا...**»[2].

☼ ومن ذلك نهيه ﷺ عن الوصال؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ. فَقَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**»[3].

☼ وكثيرًا ما كان يقول ﷺ: لولا أَنْ أشقَّ على أمَّتي لأمرتُهم بكذا!!

فقال ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي، أَوْ عَلَى النَّاسِ، لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**»[4].

وقال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي، لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ**

---

(١) أخرجه الدارمي (١٥)، والحاكم في مستدركه (١/ ٩١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٤٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نِصْفِهِ»[1].

☼ ومن روائع تلك الرحمة المهداة، وكمالِ الشَّفَقَة بأمته ﷺ؛ أن يؤثرهم على حظ نفسه في العبادة، التي يجدُ فيها قرَّة عينه؛ فكثيرًا ما يترك العملَ الذي يحبُّ أن يعملَ به رحمةً بهم!!

☼ تقول عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ؛ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ[2].

☼ ويقول ﷺ: **«إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا؛ فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»**[3].

☼ ويقول ﷺ: **«لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ حَمُولَةً، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، وَيَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي!! وَلَوَدِدْتُ أَنِّي قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ الله فَقُتِلْتُ، ثُمَّ أُحْيِيتُ، ثُمَّ قُتِلْتُ، ثُمَّ أُحْيِيتُ»**[4].

☼ وكان ﷺ حريصًا أشدَّ الحرصِ على رفع الحرج والعَنَت والمشقَّة عن أمته في أمورِ معاشِها؛ رحمةً بهم؛ فيدعو لمن يرحمهم ويرفق بهم، ويُحَذِّر كلَّ من ولاه الله شيئًا من أمورهم، أن يشقَّ عليهم؛ بل ويدعو عليه؛ فكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٧)، وابن ماجه (٦٩١)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٨)، ومسلم (٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٨٦٨)، من حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٧٢)، ومسلم (١٨٧٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»[١].

☼ **وأما رحمته ﷺ بأمته في الآخرة؛** فقمة سامقة، لا تناطحها الجبال الرواسي الشامخات!!

☼ يوم يقول كلُّ نبيٍّ: نَفْسِي نَفْسِي!! فيقول هو ﷺ: «**يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**»[٢]!! فلا تقرُّ عينه ﷺ حتى تدخل أمَّتُه الجنَّة!!

☼ بل إنه ﷺ آثر أمته بدعوته المستجابة، التي خصَّ الله بها كلَّ نبيٍّ؛ فادخرها هو لأمته يوم القيامة، حين تشتدّ حاجتُها وكربتُها!!

☼ يقول ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؛ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»[٣].

☼ **وقد تجلَّت روائعُ من صورِ رحمته وشفقته ﷺ بالأطفال والأهل والضعفاء في مواقف عديدة.**

☼ ومن ذلك؛ ما رواه أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ.

ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) جزء من حديث الشفاعة الطويل؛ أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَذْرِفَـانِ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: وَأَنْتَ يَا رَسُـولَ الله؟!! فَقَالَ: «**يَا ابْـنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ**».

ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْـزَنُ، ولَا نَقُـولُ إِلَّا مَـا يرضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»(١).

☼ ولم تكن هذه الرحمة خاصَّةً بأولادِه وأحفادِه ﷺ فحسب؛ بـل عامـة لأبنـاء المسلمين، قالت أسماء بنت عُمَيس زوجة جعفر رضي الله عنهما: دخل عليٌّ رسـول الله ﷺ فدعا بني جعفر، فرأيتُه شمَّهم، وذَرِفت عيناه، فقلتُ: يا رسولَ الله، أبلغـك عن جعفر شيء؟ قال: «**نعم، قُتِل اليوم**» فقمنا نبكي، ورجع، فقال: «**اصْـنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا؛ فَقَدْ أَتَاهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ**»(٢).

☼ ولقد كانت رحمته ﷺ بالعيال والأطفال مثارَ تعجـبٍ ودهـشةٍ في مجتمعـه، الذي لم يكن يعهد مثل هذه الرحمة!!

☼ فعَـنْ عَائِشَـةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْـرَابِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَـالُوا: أَتُقَبِّـلُونَ صِبْيَانكُـمْ؟! فَقَـالُوا: نَعَـمْ. فَقَالُوا: لَكِـنَّا والله مَا نُقَبِّـلُ!! فَقَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «**وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ الله نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ!!**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، و(القَين): الحـداد، و(الظِئـر): المرضـعة، والمـراد به هنا زوجها، وكان أبو سيف ـ واسمه البراء بـن أوس ـ هـو زوج مرضـعة إبـراهيم، الإصـابة (٤/ ٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٣٢)، والترمذي (٩٩٨)، وابـن ماجـه (١٦١٠)، وابـن سـعد (٨/ ٢٨٢) واللفظ له، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٣٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧)، واللفظ له.

☼ ولما رأى الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ رضي الله عنه، النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ، فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ، مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ!! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**»[1].

☼ وعن شَدَّادِ بنِ الهادِ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتَيِ الْعِشَاءِ، وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلاةِ، فَصَلَّى، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا.

قَالَ: فَرَفَعْتُ رَأْسِي؛ وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي.

فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ الصَّلَاةَ، قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ. قَالَ: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي؛ فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[2].

فيا لها من رحمة ما أوسعها!! «**فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»!!

إنه ﷺ لا يحب أن يزعجه أو ينازعه، وهو ممتطٍ ظهرَه الشريف؛ حتى يتركه بنفسه بعد أن يكون قضى حاجته!! كل ذلك وهو إمام بالناس في الصلاة!!

فأين المحبون المتأسُّون بنبيِّ الرحمة ﷺ من مثلِ هذه الرحمة؟!!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (١١٤١)، وأحمد (١٥٦٠٣)، والحاكم في مستدركه (٣/ ١٨١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحح الأرناؤوط إسناده، في تعليقه على المسند (٢٥/ ٤٢٠)، وصححه الألباني في صفة الصلاة، ص١٤٨.

☼ ولما استفاضَ لدى أصحابه تلك الرحمةُ منه ﷺ بالـصبيان والاحتفـاءِ بهـم؛ كانوا يأتونه بأبنائهم؛ فيُبرِّكُ عليهم ويُحنِّكهم، من غير أن يتحرجُوا من ذلك.

☼ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ فَيَدْعُو لَهُمْ؛ فَأُتِيَ بِصَبِيٍّ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَغْسِلْهُ»(١).

☼ وأتت أُمُّ قَيْسٍ بِنْتُ مِحْصَنٍ رَسُولَ الله ﷺ بِابْنٍ لَهَا لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ، فَوَضَعَتْهُ فِي حَجْرِهِ، فَبَالَ على ثوبه، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ نَضَحَ بِالْمَاءِ(٢).

فلم يتبرَّمْ ﷺ من بولِ الصبيِ في حَجْرِه، ولم يُثرِّب أو يُعنِّف مَن أتى به.

☼ وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ، وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا»(٣).

فعلى هذا النحو وأكثر، كانت رحمة نبي الرحمة ﷺ بالأطفال.

☼ **وأما رحمتُـه ﷺ بأهـله**؛ فتتجـلى أول ما تتجلى؛ في حرصـه ﷺ عـلى نجـاتهنَّ من عذاب الله، وتعهدِهنَّ بنُصحِه ﷺ.

☼ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً فَزِعًا فَقَالَ: «سُبْحَانَ الله! مَاذَا أَنْزَلَ الله مِن الخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِن الْفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٥)، ومسلم (٢٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣)، ومسلم (٢٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٠٣).

- يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ - لِكَيْ يُصَلِّينَ، رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا، عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ»[1].

☼ وكان ﷺ يرشدُهُنَّ إلى ما هو خيرٌ لهنَّ وأنفع من العمل؛ فعَنْ جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث رَضِيَ الله عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ؛ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[2].

☼ وتوجيهاته ﷺ ووعظه لنسائه ﷺ ونساء المؤمنين كثيرة متنوعة، في مناسبات وأحوال متفرقة؛ يحثهنَّ فيها على البرِّ والصدقة وطاعة الزوج في المعروف.

وهو ﷺ في ذلك ممتثل توجيهات القرآن - الذي هو خُلُقُه-؛ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه:١٣٢]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

☼ ورحمتُه ﷺ حاضرة ظاهرة كذلك في إعانتهنَّ على أمور البيت والمعاش؛ فيما يقوم به ﷺ في بيته من أعمال؛ خدمة ومعونة لهنَّ؛ فكان يَخيط ثوبَه، ويَخصِف نعلَه؛ هذا مع جنابه العظيم، ومقامه الكريم ﷺ.

☼ فقد سُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦).

«كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة»[1].

☼ وعنها رضي الله عنها، قالت: «كان يخيط ثوبه، ويخصِفُ نعلَه، ويعملُ ما يعمل الرجالُ في بُيوتهم»[2].

☼ وسُئِلَتْ عَائِشَة رضي الله عنها: مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»[3].

☼ **وأما رحمته ﷺ بضعفاء المسلمين**؛ فقد منحَهم وأولاهم ﷺ كاملَ رحمتِه، وعظيمَ تحنُّنه ورأفته وشفقته.

☼ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدَمُ الْمَدِينَةِ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا الْمَاءُ، فَمَا يُؤْتَى بِإِنَاءٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا، فَرُبَّمَا جَاءُوهُ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيهَا[4]. وذلك للتبرك به ﷺ.

وما كان ﷺ يفعل ذلك إلا لكمال رحمته وشفقته ورأفته بهم؛ ليطيب نفوسهم، مع ما كان في ذلك من عناء له، ومشقة شديدة؛ من شدَّة برد المدينة في الشتاء.

☼ ولم تكن هذه الرحمة متكلفة يبذلها ﷺ لهم حال حياتهم فقط؛ بل إنها تمتدُّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦). وتقدم بمزيد من البيان في مبحث تواضعه ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٣٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٥٦٧٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأصله عند البخاري (٦٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٣٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٦٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٧١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢٤). و(صلاة الغداة): هي صلاة الصبح.

لتشملَهم بعد مماتِهم أيضًا!!

☼ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ أَسْوَدَ ـ رَجُلاً أَوِ امْرَأَةً ـ كَانَ يَكُونُ فِي المَسْجِدِ، يَقُمُّ المَسْجِدَ، فَمَاتَ وَلَمْ يَعْلَمِ النَّبِيُّ ﷺ بِمَوْتِهِ، فَذَكَرَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «**مَا فَعَلَ ذَلِكَ الإِنْسَانُ؟**» قَالُوا: مَاتَ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**أَفَلا آذَنْتُمُونِي؟!**». فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا... قِصَّتُهُ. قَالَ: فَحَقَرُوا شَأْنَهُ. قَالَ: «**فَدُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ**» فَأَتَى قَبْرَهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ[1].

☼ وكان من كمالِ رحمته ﷺ بهؤلاء الضعفاء أن يترك بعض ما يحب من العمل رحمة بهم وشفقة عليهم، كما تقدم في تركه الخروج للجهاد مع كل سرية[2].

☼ وقد كان ﷺ يخفض لهم جناحه تواضعًا لهم، ورحمة بهم؛ فكَانَ ﷺ لا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ؛ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ[3].

☼ وكانَ ﷺ يَأْتِي ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَزُورُهُمْ، وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ، وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ[4]. وغير ذلك كثير كما في مبحث تواضعه ﷺ.

☼ **وأما رحمته ﷺ بالكافرين**؛ فهذا مما أدهش العالمين، وأعجز فَهمَ الأكثرين!!

آذوه وأدموا قدمه الشريفة وأغروا به سفهاءهم؛ فلما عُرِض عليه إهلاكهم؛ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٧)، ومسلم (٩٥٦). و(يقُمُّ): يكنس، و(آذَنْتُمُونِي): أعلمتموني وأخبرتموني.

(٢) كما عند البخاري (٢٩٧٢)، ومسلم (١٨٧٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وقد تقدم قريبًا.

(٣) أخرجه النسائي (١٤١٤)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ، وقد تقدم قريبًا. وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٣٤١).

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٤٦) من حديث سهل بن حُنيف ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١١٢).

«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[١]!!

☼ قاتلوه، وشجَّوا وجهه الشريف ﷺ، وكسروا رَباعيته، وقتلوا أحبَّ النَّاس إليه، وألَّبُوا عليه الجيوش لاستئصاله؛ فلمّا أن أظفرَه الله عليهم؛ رحمَهم، وعفا عنهم، وأحسن إليهم!!

☼ ذلك الموقف الذي أحار أحد كبار المؤرخين فقال: «كانت تصرفات الرسول ﷺ في أعقاب فتح مكة، تدل على أنه نبيٌّ مرسل، لا على أنه قائدٌ مظفر؛ فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه، برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توَّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»[٢].

☼ ولم تقف رحمته ﷺ عند الإعراض عن أذيَّتهم والصفحِ عنهم، والحلمِ عن جهالاتهم؛ بل إنها تعدَّت ذلك إلى مجال أرحب وأفسح، يتجلى في حرصه البالغ على هدايتهم وإنقاذهم من موجبات سخط الله وعذابه، فأرهق في سبيل ذلك نفسه الشريفة، وأجهد بدنه؛ حتى كاد يُهلك نفسَه أسفًا عليهم؛ حتى رفق به ربه و عاتبه رأفة ورحمة به؛ فقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقال له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

☼ وعندما قيل له ادع على المشركين، قال ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، وسيأتي بتمامه في مبحث حلمه وعفوه ﷺ.

(٢) هو كلام الكاتب والمؤرخ الأمريكي «واشنجتون إيرفنج»، وهو من أوائل العلماء الأمريكان الذين عُنوا بالحضارة العربية وتاريخها، حياة محمد، ص٧٢.

رَحْمَةً»(1).

☼فليت شعري! أين دعاة اليوم من مثل هذه الشفقة، وتلك الرحمة بالخلق، والحرص على دعوتهم وهدايتهم؟!!

وصدق الله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

☼لقد كان ﷺ رحمة للعالمين على اختلاف أديانهم وأعراقهم، وكيف لا يكون كذلك وقد وصفه ربُّه عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟!

☼كيف لا يكون كذلك وهو ﷺ القائل في فضل الرحمة: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(2)؟!

☼ كيف لا يكون كذلك وهو ﷺ القائل في وصف أهل الجنة: «وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ...»(3)؟!

☼ فلا جرم أن يمتلئ قلبه رقة وحنانًا وشفقة، وتبلغ رحمته الإنسان والحيوان، بل والجماد.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٢٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه.

☼ فاتسعت رحمته ﷺ لتشمل الطير والحيوان؛ فأمر بالرِّفقِ بها، وتوعَّد من عذَّبها أو حبسها حتى الموت بالعذاب والنار في الآخرة.

☼ ونهى ﷺ أن تُجعل الطيور أو غيرها؛ من ذوات الأرواح، هدفًا للرمي بالسهام وغيرها من الأسلحة؛ فقال ﷺ: **«لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»**[1].

☼ ونهى ﷺ أن تُصْبَرَ البهائم[2]؛ أي أن تُحبس وهي حيَّة؛ لتُقتَل بالرمي ونحوه.

☼ وقال ﷺ محذرًا من يؤذي الحيوان الضعيف: **«دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا؛ فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»**[3].

☼ ومَرَّ رسول الله ﷺ ببعيرٍ قد لَحِقَ ظهره ببطنه، فقال: **«اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعجَمَةِ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً»**[4].

☼ وفي المقابل؛ فقد جعل الإحسان إلى هذه الحيوانات سببًا لمغفرة الذنوب العظيمة؛ فقال ﷺ: **«بَيْنَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ؛ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا؛ فَاسْتَقَتْ لَهُ؛ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»**[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٧)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٨١٤)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، و(خَشَاشِ الأَرْضِ): حشرات الأرض وهوامها.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨)، من حديث سَهْلِ بْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ ﷺ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ، و(يُطِيف): يحوم، و(الرَكِيَّة): البئر، و(المُوق): الخف.

☼ومن مظاهـر شفقته ورحمته ﷺ بهذه المخلوقـات الضعيفة؛ ما يرويه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قائلاً: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَة معها فرخان، فأخذنا فَرْخَيْهَا، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تُعَرِّشُ، فجاء النبي ﷺ فقال: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**»[1].

☼ فلا عجب إذن أن يبكي الحيوان البهيم بين يدي نبي الرحمة ﷺ ويشتكي له ما يجده من قسوة صاحبه!!

فعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، قال: أردفني رسـول الله ﷺ خلفـه ذات يوم، فدخل حائطًا[2] لرجل من الأنصار، فإذا فيـه جمـل، فلـمَّا رأى النبـيَّ ﷺ حـنَّ وذرفت عيناه، فأتاه رسولُ الله ﷺ فمسح ذِفْرَاه[3] فـسكن، فقـال: «**مَـنْ رَبُّ هَـذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلِ؟**»، فجاء فتًى من الأنصار، فقـال: هـو لي يـا رسـول الله. فقال: «**أَفَـلا تَتَّقِي الله فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ الله إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**»[4].

فلله ما أعظمه من خلق وما أوسعها من رحمة!!.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٦٨)، والحاكم (٧٥٩٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٨٧)، و(الحُمَّرَة): طائر صغير كالعصفور، و(تُعَرِّشُ): ترفرف، و(التَّعْرِيش): أن ترتفع وتظلّل بجناحيها على من تحتها.

(٢) الحائط: البستان.

(٣) ذِفرَى البعير: أصل أذنه، وهو الموضع الذي يعرق منه الإبل خلف الأذن.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وأحمد (١٧٤٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠). و(تُدْئِبه): أدأب الرجل الدابة إدآبًا: إذا أتعبها، وعمل عليها عملاً متواصِلاً.

☼ **بل أعجب من ذلك أن تتسع رحمتهﷺ لتشمل الجماد أيضًا!!**

فعن أنس ﷺ، أن النبيﷺ كَانَ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ ذَهَبَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَحَنَّ الْجِذْعُ، فَأَتَاهُ فَاحْتَضَنَهُ،فَسَكَنَ. فقالﷺ : «لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

يالله!! خشبة تَحِنُّ إلى رسول اللهﷺ !! فيبادلها هذا الشعور، ويحتضنُها!!

أين دعاة حقوق الإنسان، والرفق بالحيوان، من شيء من هذه المعاني الرائعة، وتلك القمم السامقة؟!!

إن أصحاب القلوب القاسية لا يدركون شيئًا من سموٍّ تلك الرحمة وشموها وروعتها، بل ليس للعاطفة في صدورهم مكان؛ إنهم كالحجارة الصماء، جفافٌ في العطاء والأخذ، وبخلٌ بأرق المشاعر والعواطف الإنسانية.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨٣)، والحنين: صوت كالأنين، ويكون عند الشوق، وتوصف به الإبل.

رحمته ﷺ وشفقته في دعوته

☼ لم تكن دعوته ﷺ بمعزل عن شفقته ورحمته بأمته ﷺ.

☼ فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْـــرَاهِيمَ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**» وَبَكَى.

فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟**» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ؛ فَقَالَ الله: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ**»(١).

☼ بل لم تكن دعوته ﷺ بمعزل عن شفقته ورحمته للعالمين؛ فقام يدعو إلى الله عزَّ وجلَّ لا يكلُّ ولا يملُّ ولا يدخر في ذلك وسعًا؛ حتى كاد يهلك نفسه الشريفة ﷺ حزنًا على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه!!

فقال له ربه تسلية له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]، وقال له: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال له: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨].

وكأنه عتاب وإشفاق على رسول الله ﷺ لشدة ضيقه وهمِّه بعدم إيمان قومه، وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢).

يوقن بها ينتظرهم بعد التكذيب، فتذوب نفسه عليهم وهم أهله وعشيرته وقومه، ويضيق صدره؛ فربُّه الرءوف الرحيم يرأف به، وينهنهه عن هذا الهمِّ القاتل، ويهون عليه الأمر!!

وياله من إخلاص وجدٍّ وعزمٍ وحرصٍ على هداية الخلق؛ حتى كاد يهلك نفسه لأجلهم رحمة بهم وشفقة عليهم!!

☼ فليت شعري أين دعاة اليوم ـ الذين يدعون محبته ﷺ والذين يريدون نصرته ـ أين هم من مثل هذا الجد والعزم، وتلك الشفقة والرحمة بالخلق والحرص على دعوتهم وهدايتهم؟!!

☼ لقد قال له ربه عزَّ وجلَّ: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ٢]؛ فقامَ ﷺ وظلَّ قائمًا أكثر من عشرين عامًا ﷺ.

☼ قام رسول الله ﷺ لم يسترِحْ ولم يسْكُنْ، ولم يَعِشْ لنفسه أو أهله!!

☼ قام ﷺ وظلَّ قائمًا يحمل على عاتقه عبءَ البشرية جميعًا، وعبءَ الأمانة الكبرى في هذه الأرض.

☼ قام فشملت دعوته عليه الصلاة والسلام جميعَ الخلق، فكان ﷺ أكثرَ رسلِ الله دعوةً وبلاغًا وجهادًا، لذا كان أكثرهم إيذاءً وابتلاءً، منذ بزوغ فجر دعوته إلى أن لحق بربِّه جلَّ وعلا.

☼ وكانت دعوته ﷺ كلُّها رحمة وشفقة وإحسانًا، وحرصًا على جمع القلوب وهداية الناس جميعًا، مع الترفق بمن يخطئ أو يخالف الحق، والإحسان إليه، وتعليمه بأحسن أسلوب وألطف عبارة وأحسن إشارة، متمثلاً قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

☼ ومن ذلك لما جاءه الفتى يستأذنه في الزنى؛ فعن أبي أُمامة ﷺ، قال: إنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا: مَهْ مَهْ.

فقال له: «ادْنُهْ»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قال: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قال: لَا والله، يَا رَسُولَ الله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ».

قال: «أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟» قال: لَا والله، يَا رَسُولَ الله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ».

قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قال: لَا والله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قال: «ولَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ».

قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا والله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قال: «ولَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ».

قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا والله، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قال: «ولَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ».

قال: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[1].

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٠٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٠)، و(مَهْ مَهْ): كلمة زجر وإنكار بمعنى: اكفف.

حلمه وعفوه وصفحه ﷺ

☼ وكيف لا يبلغ من هذه الأخلاق قمَّتَها، وقد قال فيه ربه عزَّ وجلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؟!.

☼ فاللين وعدم الغلظة والفظاظة هو عين الحلم الذي اتصف به ﷺ، وقد بلغ ﷺ كماله بالعفو والصفح والإعراض عن الجاهلين؛ امتثالاً لأمر ربه عزَّ وجلَّ له: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

☼ فلازم هذه الأخلاق في كل حين؛ فكان أحلم في النِّفار من كل حليم، وأسلم في الخصام من كل سليم، وقد مُني بجفوة الأعراب؛ فلم يوجد منه نادرة، ولم يُحفظ عليه بادِرة، ولا حليم غيره إلا ذو عثرة، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة، فإن الله تعالى عصمه من نزع الهوى وطيش القدرة لهفوة أو عثرة؛ ليكون بأمته رءوفًا وعلى الخلق عطوفًا.

☼قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم، ومعرض عنهم، وما تفرد بذلك سفهاؤهم عن حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم؛ بل تمالأ عليه الجِلَّة والدُّون، فكلما كانوا عليه من الأمر ألحَّ ـ كان عنهم أعرض وأصفح، حتى قهر فعفَا، وقدَر فغفَر[1].

☼ فقد وسع حلمه ﷺ كلَّ أحد؛ عدوًا كان أم صديقًا، رجلاً أم امرأة، قريبًا أم بعيدًا، صغيرًا أم كبيرًا!!

---

(١) مستفاد من أعلام النبوة، للماوردي، بتصرف يسير، ص٢٨٨.

☼ **فأما حلمه ﷺ مع أهله وأزواجه؛ فلم يُسمع بمثله في حلمه عن نسائه، وذلك** مع عظيم جنابه، ورفيع قدره، وسموِّ منزلته ومكانته عند الله تعالى وعند الناس.

☼ عن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: «كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الأَنْصَارِ إِذَا قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ؛ فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الأَنْصَارِ، فَصَخِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي، فَرَاجَعَتْنِي،فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي.

قَالَتْ: وَلِمَ تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ؟ فوالله إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ، وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ.

فَأَفْزَعَنِي ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَهَا: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكِ مِنْهُنَّ.

ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَنَزَلْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ لَهَا: أَيْ حَفْصَةُ، أَتُغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ النَّبِيَّ ﷺ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟!

قَالَتْ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: قَدْ خِبْتِ وَخَسِرْتِ!! أَفَتَأْمَنِينَ أَنْ يَغْضَبَ الله لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ فَتَهْلِكِي؟!!»[1].

فانظر إلى مبلغ حلمه ﷺ على أزواجه!! تظل إحداهنَّ هاجرة له اليوم كلَّه؛ حتى تهجر اسمه الشريف!!

☼ والأعجب من ذلك أنه ﷺ كان مع ذلك الحال يلاطفهنَّ في القول، وكأنه لم يصدر منهنَّ شيء!!

☼ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ:

(١) أخرجه البخاري (٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩). (وطفِقَ): شرع وبدأ، و(فَصَخِبْتُ): الصخب: الضجة واختلاط الأصوات عند الخصام.

«أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً؛ فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى؛ قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ». قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ، والله، يَا رَسُولَ الله، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ[1]!!.

☼ ترى كيف يكون تصرف أحدنا؛ إذا استطالت زوجته بيدها بين يديه، وهو في مجلس مع بعض أضيافه؟!!

إليك ماذا فعل الحليم ﷺ مع من فعلت ذلك من أزواجه بحضرة أضيافه!!

☼ عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ؛ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**».

ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا،وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ[2].

يُغضي الحليم ﷺ عن ذلك ويحلم، ويصبر ويصفح!!

☼ **وأما حلمه ﷺ بخدمه**؛ فاسمع يا رعاك الله، من بعض خدمه ما تعجز عن تصوره!!

☼ فعن أنسٍ ﷺ، قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٥)، وعند النسائي (٣٩٥٦) أن التي غارت هي عائشة رضي الله عنها، وأن صاحبة الصحفة التي كُسِرت هي أم سلمة رضي الله عنها. وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٦٩٣). و(الصَّحْفَة): الإناء الواسع.

يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «**يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ أَنَسٌ: وَاللهِ، لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»[1].

۞ **وأما حلمه وعفوه ﷺ عن أصحابه**؛ فآية أخرى على كمال خلق الحبيب ﷺ في حلمه وعفوه؛ لأنه قد يحلم المرء عن العدو لسبب عداوته؛ استعطافًا له لتألفه، بينما الصديق والصاحب لا يحتاج معه إلى مثل ذلك، وحقُّه أن يكون محافظًا على الآداب، وعارفًا بمواطن الرضا والسخط؛ فإذا فعل ما يُخِلُّ بذلك؛ كان جديرًا بالتأديب والتعزير والتأنيب؛ فإن تُرِك بلا تثريب مع قيام المقتضي؛ فدليل عظيم على كمال الحلم وتمكُّنه!!

فكان ﷺ مع أصحابه في ذلك على أكمل حال وأتمه؛ يحلم عن إساءتهم، ويعفو عن زلَّاتهم، ويَصْفَح فلا يُؤنِّب، ويغفر فلا يُثرِّب!!

۞ عن أنس بن مالك ﷺ، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ.

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»... قَالَ: فَأَمَرَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٠).

رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ[1].

☼ وعن أَنس ﷺ، قال: كُنتُ أَمْشِي مَعَ رسول الله ﷺ، وعليه بُردٌ نَجْرَانيٌّ غلِيظُ الحَاشِيةِ، فأَدركَهُ أَعْرَابيٌّ، فَجبذهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَة شَديدَةً، فَنظرتُ إلى صفحة عاتِقِ النَّبيِّ ﷺ، وقَد أَثَّرَت بِها حَاشِيَةُ الرِّداءِ مِنْ شِدَّةِ جَبذَتِهِ، ثُمَّ قال: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لي مِن مالِ الله، الذي عِندَكَ. فالتَفَتَ إِلَيْه، فضحِكَ، ثُمَّ أَمر لَهُ بعَطَاءٍ[2].

☼ **وأما حلمه وعفوه وصفحه ﷺ عن أعدائه**،مع قدرته عليهم وتمكُّنِـه مـنهم؛ فدليل على رسوخ ذلك الخلق العظـيم، وتمكُّنِـه في نفـس الحبيـب ﷺ؛ حتـى عـمَّ أعداءه، كما عمَّ أصحابه وأحبابه!!

☼ عـن جَـابِرِ بْن عَبْدِ الله رَضِيَ الله عَنْهُما، أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُـولِ الله ﷺ قِبَلَ نَجْـدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُـولُ الله ﷺ، قَفَلَ مَعَـهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَـائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَـزَلَ رَسُـولُ الله ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ.

فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً؛ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: الله ثَلَاثًا**» وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ[3].

☼ ولم يتخلَّف حلمُه ﷺ عن معاملته لليهود، رغم إساءتهم المتكررة له،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٥) واللفظ له. و(مَهْ مَهْ): كلمة زجر وإنكار بمعنى: اكفف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣). و(قَفَلَ): رجع، و(الْقَائِلَةُ): منتصف النهار، و(الْعِضَاهِ): شجر عظيم له شوك، (واخْتَرَطَ): سلَّ السيف، وأخرجه من غمده، و(صَلْتًا): مسلولاً.

وكيدهم له ومكرهم به وبأصحابه؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«مَهْلاً يَا عَائِشَةُ؛ فَإِنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»**. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»**[1].

☼ ولقد فاق حلمُه وعفوُه ﷺ عن قريش وأهل الطائف كلَّ ما يتصوره البشر، وهم الذين بلغ إيذاؤهم له ـ بأبي هو وأمي- مبلغًا لا يطيقه بشر؛ فآذَوه وأغرَوا به سفهاءهم؛ فرمَوه بالحجارة حتى أدموا قدمه الشريفة ﷺ، وردوا عليه ردًّا منكرًا؛ حتى بلغ به الهمُّ مبلغًا عظيمًا، هو أشدُّ عليه من يوم أُحد ـ مع ما كان في يوم أُحد من جراح عظيمة ومصابٍ فادحٍ ـ إلا أن الجرح الأعمق في نفسه الشريفة ﷺ، والذي لم يزل يتذكر وقعَه السيئ عليه، هو ما فعله معه أهل الطائف.

☼ فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟

فقَالَ ﷺ: **«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ.**

فَرَفَعْتُ رَأْسِي؛ فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ

(١) أخرجه البخاري (٦٢٥٦)، ومسلم (٢١٦٥). و(السَّامُ): الموت.

لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ.

فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ؛ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

فأي حلم هذا؟! وأي عفو وصفح هذا؟!!

☼ والعجيب أن يمتد هذا الحلم وذاك العفو إلى أعدائه في خِضَمِّ حربهم له، وأوج أذاهم وظلمهم له!!

☼ فعن ابن مسعود ﷺ قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»[2].

☼ وها هي قريش ـ وهي التي حاصرته وأصحابه في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، ومنعت عنهم الطعام، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يُسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم، يتضاغون من الجوع، حتى أشرفوا على الهلاك؛ فلم تَرحم قريش ضعفَهم، ولم تأبه بما هم من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، و(الأخشبان): الجبلان المحيطان بمكة. والأخشب: الجبل الغليظ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

حق الرَّحِم ـ هاهي ذا تنسى هذا الجرمَ كلَّه؛ فتكتب إليه ﷺ وقد أصابهم الرعبُ، وهاجمهم شبحُ الجوع؛ تستغيث به ﷺ ليتدخل لدى ثُمَامَة بْن أُثَالٍ، زعيم بني حنيفة؛ ليرجع عن قراره الذي اتخذه من نفسه، بمنع تصدير القمح إلى مكة؛ وقال لهم: «والله لَا يأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ»(١).

فَقَدِمَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَأَلَهُ بِالرَّحِمِ؛ إِلَّا أَرْسَلْت إِلَى ثُمَامَةَ؛ أَنْ يُخَلِّيَ الْحَمْلَ ـ أي حمل الطعام ـ إِلَيْنَا، فَإِنَّا قَدْ هَلَكْنَا جوعًا، ففعل النبي ﷺ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا إِلَى ثُمَامَةَ؛ أَنْ خَلِّ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَبَيْنَ الْمِيرَةِ - جلب الطعام ـ فَلَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ، قَالَ: سَمْعًا وَطَاعَةً لِرَسُولِ الله ﷺ (٢).

لقد أرسلوا إليه يناشدونه الرَّحِمَ - الذي قطعوه بحربِهم له وحصارِهم إياه - فلم يعاملهم بالمثل؛ ويتركهم يُعانونَ من الجوع الذي أذاقوه إياه وأصحابَه، ولم يرحموا دموع امرأة أو شيخ كبير أو صراخَ طفلٍ صغير، لم يفعل ذلك- وكان بمقدوره أن يفعل- فإنه ﷺ لم يأمر بذلك، ولم يستشره ثُمامةُ حين فعل ذلك، ولكنه الرءوف الرحيم ﷺ.

فياليتنا نعامل إخواننا وأحبابنا بما عامل به رسول الله ﷺ أعداءه وأعداءنا!!

ﷺ وما أروع موقفه من مكة وأهلها ـ وقد مكَّنَه الله منهم، ودخلها فاتحًا منتصرًا عزيزًا ـ وهم الذين آذوه أشدَّ الأذى، وأخرجوه وطردوه، وقاتلوه أشدَّ القتال،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر: البيهقي في الكبرى (١٧٨١٠)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٦٣٨)، ونصب الراية لأحاديث الهداية (٣/ ٣٩٢، ٣٩٣)، وأصل القصة في الصحيحين كما تقدم.

وتكالبوا عليه، وألَّبوا عليه العرب، وقتلوا أعزَّ الناسِ على قلبه؛ فإذا به ﷺ ينسى ذلك كلَّه، ويعفو عنهم، ويؤمِّنُهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم[1]!!

وها هو أبو سفيان؛ وقد أدهشه ما يراه من حلمه وعفوه وصفحه يوم الفتح، فلم يملك إلا أن يصدع بهذه الحقيقة؛ فيقول لرسول الله ﷺ: بأَبِي أنت وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ، وَأَكْرَمَكَ، وَأَوْصَلَكَ، وَأَعْظَمَ عَفْوِكَ!![2].

ولو لم يكن من كرم عفوه، ورجاحة حلمه؛ إلا ما كان من هذا اليوم؛ لكان ذلك من أكمل الكمال، وأوضح البرهان، على مبلغ حلمه، وعظيم عفوه وصفحه ﷺ[3].

والذي لا ينقضي منه العجب؛ هو حلمه وعفوه ﷺ عن المنافقين، مع علمه بأسمائهم وبكيدهم ومؤامراتهم وخداعهم وخيانتهم له ـ بإعلام الله له ـ!!

---

(١) ما روي عنه ﷺ أنه قال لقُرَيْشٍ: «مَا تُـرَوْنَ أَنِّي فَاعِـلٌ فِـيكُمْ؟» قَـالُوا: خَـيْرًا، أَخٌ كَـرِيمٌ وَابْـنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»؛ فمع شهرته إلا أنه لم يثبت سندًا؛ فقد أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٤)؛ وهذا سند ضعيف مرسل؛ لأن شيخ ابن إسحاق فيه لم يُسَمَّ؛ فهو مجهول، ثم هو ليس صحابيًا، لأن ابن إسحاق لم يدرك أحدًا من الصحابة، بل هو يروي عن التابعين وأقرانه، فهو مرسل أو معضل. وضعفه الحافظ العراقي. وخبر عفوه عنهم وإحسانه إليهم مستفيض مشهور، كما سيأتي في الأثر الذي بعده.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٦٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤٢): أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٤١).

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٢٩).

ومع ذلك يحلم عنهم، ويعفو ويصفح، وكلما أُذِن له في تأديبهم والتشديد عليهم؛ فتح لهم بابًا من الرحمة؛ فكان يستغفر لهم ويدعو لهم!!

☼ ولَمَّا مَاتَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَثَبَ إِلَيْهِ عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ الله، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ، وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا؟!! قَالَ عمر: أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: «**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ**» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: «**إِنِّي خُيِّرْتُ**(1) **فَاخْتَرْتُ؛ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**».

قَالَ عمر: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، والله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ(2).

☼ وتأخذ الإنسان الدهشة عندما يرى رسول الله ﷺ يدفع له قميصه ليكفن فيه بعد أن سأله إياه ابنه عبد الله(3)!!

☼ إن هذا الحلم والصفح والإحسان مع رأس المنافقين!! مع من آذاه في عرضه

---

(1) وهو قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

(2) أخرجه البخاري (٤٦٧١) من حديث عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما.

(3) روى البخاري (١٢٧٠)، ومسلم (٢٧٧٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: أَتَى النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ بَعْدَ مَا دُفِنَ، فَأَخْرَجَهُ، فَنَفَثَ فِيهِ مِنْ رِيقِهِ، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ.

الشريف[1]!! مع من خذله في أعظم المواقف خطرًا فانسحب بثلث الجيش وتركه[2]!! مع من تولى كِبْرَ تأليبِ الأعداء عليه من اليهود والكفار!!

لا جرم أن يكون هذا هو خلق محمد ﷺ!!

فما أرحمه بأمته! وما أحلمه وأرفقه بأعدائه ومخالفيه! بأبي هو وأمي ﷺ!!

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

* * *

---

(١) فهو مدبر حملة الإفك وجرثومتها الخفية، وهو الذي تولى كبره. وانظر: البخاري (٤٧٤٩)، ومسلم (٢٧٧٠)، و فقه السيرة للغزالي، ص٣١٣.

(٢) مرويات غزوة بني المصطلق، لإبراهيم قريبي، ص ١٦٢، سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤).



عدله ﷺ

☼ كان عدله ﷺ وإقامته شرع الله تعالى مع القريب والبعيد، والعدو والصديق، والمؤمن والكافر؛ مضرب المثل؛ كيف لا وهو رسول الله ﷺ، والمبلغ عن ربِّه ومولاه؟!!

☼ فلقد كان خلق العدل راسخًا متمكنًا من نفس رسول الله ﷺ؛ بل غريزة ملازمة لا تنفك عنه ﷺ؛ فكان معروفًا بها قبل أن يكرمه ربُّه بالنبوة؛ فكيف بعد أن منَّ الله عليه بها؟!!

☼ فقد شهد مع عمومته، وهو حديث السنِّ، حِلفَ الفضول، الذي عقدته قريش لنصر المظلوم وأخذ حقه من الظالم، والذي قال عنه بعد أن أكرمه الله بالنبوة: **«لقدْ شهدتُ فِي دَار عبد الله بن جدعَان حِلفًا، لَو دُعيت بِهِ فِي الإِسْلَام لَأَجَبْت؛ تحالفوا أَن يردوا الفضول عَلَى أَهلِهَا، وَأَلَّا يَعُد ظَالم مَظْلُومًا»**[1].

☼ ولما اختلفت قبائل قريش وتنافست على رفع الحجر الأسود؛ تريد كل قبيلة أن تحظى بشرف رفعه، وكادت تتقاتل، ثم هُديت إلى تحكيم أول داخلٍ عليهم ليحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، فكان ذلك الداخل هو محمد ﷺ - ولم يكن قد أُوحِي إليه بعد- فرضي به الجميع حكمًا؛ لما يعلمون من أمانته وفطنته وعدم محاباته أحدًا، فحكم بينهم بالعدل والقسط؛ فرضي الجميع بحكمه العدل، الذي لم تُغمط

(١) أخرجه البيهقي (٦/٦٧)، وابن هشام في سيرته (١/١٥٥)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٩١)، وصححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي، ص٧٥.

فيه قبيلة لصالح أخرى[1].

☼ وكان من عدله ﷺ بين الناس؛ ألَّا يفرق بين وليٍّ وعدوٍ، أو بين قريب وبعيد؛ بل الناس كلهم عنده سواسية.

☼ وفي قصة المرأة المخزومية التي سرقت، لما شفع فيها أسامة بن زيد حِبُّه، ليعفو عنها، غضب أشدَّ الغضب، وتَلَوَّنَ وَجْهُه الشريف ﷺ، وقال منكرًا على أسامة: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله؟». فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ الله.

فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ ﷺ فَاخْتَطَبَ، فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[2].

وفي هذا القسم العظيم على إقامة الحدِّ، حتى على ابنته، التي هي بضعة منه، لو اقترفت ما يوجب ذلك - وحاشاها أن تفعل، وقد أعاذها الله منه - في هذا القسم العظيم؛ دليلٌ على نهاية حرصه ﷺ على إقامة العدل بين الناس، ولو كانوا أولي قربى.

ولذا كان استياؤه ﷺ عظيمًا، من ذلك الأعرابي الجِلف المسمى ذُو الْخُوَيْصِرَةِ،

---

(١) خبر حكمه ﷺ في قصة بناء الكعبة؛ أخرجه أحمد (١٥٠٧٨) من حديث السائب بن أبي السائب ؓ، وانظر: دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٠٤)، وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي، ص٨٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

الذي أتاه ذَاتَ يَوْمٍ وهو يَقْسِمُ قِسْمًا، فَقَالَ له: يَا رَسُولَ الله، اعْدِلْ. قَالَ: «**وَيْلَكَ!! مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»[1].

☼ وقد تجلَّت مظاهر العدل ومعالمه عند النبيِّ ﷺ في أسمى صورها، في كلِّ مجالات العدل وصوره؛ بينه وبين ربِّه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين الخلق.

☼ **فأما عدله ﷺ فيما بينه وبين ربه عزَّ وجلَّ**؛ فتجلى في أعظم صوره على الإطلاق؛ فآثر حقه تعالى على حظ نفسه؛ فقام لمولاه حتى تفطَّرت قدماه، وقدَّم رضاه سبحانه على هواه؛ فكان يرغب في الشيء ويهواه غير أنه لم يؤذن له فيه؛ فلا يتجاوز ما علمه عن ربِّه ومولاه إلى ما يهواه، ومن ذلك: صلاته إلى بيت المقدس، حتى أكرمه الله تعالى بما يحب ويرضى.

☼ **وأما عدله ﷺ مع نفسه الشريفة**؛ فعاملها بالقسطاس المستقيم؛ فلم يدع لها هواها في الحصول على مناها، ولم يحرمها مما به قوامها وزكاتها وتقواها؛ كما هو هديه المعروف في زهده ﷺ الذي قام على القسط والعدل؛ من غير إفراط في نيل لذات الدنيا ولا تفريط في تركها، وما ذلك إلا لكمال عدله مع نفسه الشريفة، وإعطائها حقها؛ الذي صدَّق عليه وأقره لها: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤). من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقوله: (خِبْتَ وَخَسِرْتَ)؛ قال النووي في شرح مسلم (٧/ ١٥٩): روي بفتح التاء في (خبت وخسرت) وبضمها فيهما، ومعنى الضم ظاهر، وتقدير الفتح: خبتَ أنت أيها التابع إذا كنتُ لا أعدل؛ لكونك تابعًا ومقتديًا بمن لا يعدل. والفتح أشهر، والله أعلم.

وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[1].

☼ **وأما عدله ﷺ بينه وبين الخلق**؛ من إنصاف له؛ فقد قام به حقَّ القيام وبذله لأهله وأصحابه وجنده، مع عظيم مكانته ورفعة شأنه ﷺ.

☼ ومن ذلك ما جاء عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ﷺ؛ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ- وَكَانَ فِيهِ مِزَاحٌ -بَيْنَا يُضْحِكُهُمْ فَطَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ، فَقَالَ: أَصْبِرْنِي. فَقَالَ: «**اصْطَبِرْ**». قَالَ: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا، وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ. فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَمِيصِهِ، فَاحْتَضَنَهُ، وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ. قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ[2].

☼ ومن روائع ما جاء في ذلك العدل والإنصاف من نفسه الشريفة ﷺ أنه بينما كان ﷺ يعدِّلَ صُفُوفَ أَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَفِي يَدِهِ قَدَحٌ يُعَدِّلُ بِهِ الْقَوْمَ؛ فَمَرَّ بِسَوَّادِ بْنِ غَزِيَّةَ ـ وَهُوَ مُسْتَنْتِلٌ مِنَ الصَّفِّ -أي متقدم- وَقَالَ: «**اسْتَوِ يَا سَوَّادُ**».

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْجَعْتَنِي، وَقَدْ بَعَثَكَ اللهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ. قَالَ: فَأَقِدْنِي.

فَكَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: «**اسْتَقِدْ**».

قَالَ: فَاعْتَنَقَهُ، فَقَبَّلَ بَطْنَهُ.

فَقَالَ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَّادُ؟**».

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨)، من حديث وهب بن عبد الله ﷺ، وهو من كلام سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما، وقد أقره النبي ﷺ، وقال: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**».

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٤)، وصحح الألباني إسناده في صحيح سنن أبي داود(٤٣٥٢)، و(أَصْبِرْنِي): مكني من القصاص، و(اصْطَبِرْ): اقتص، و(كَشْحَهُ): ما بين الخاصرة إلى الضلع الأقصر من أضلاع الجنب.

قَالَ: يَا رَسُولَ الله، حَضَرَ مَا تَرَى، فَأَرَدْت أَنْ يَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بِك أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَك. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِخَيْرٍ[1].

☼ ومع كمال عدله ﷺ مع الخلق؛ فإنه كان يدعو ربَّه، ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ؛ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، وَإِنِّي قَدِ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ؛ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ؛ فَاجْعَلْهَا لَهُ كَفَّارَةً وَقُرْبَةً، تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

فهكذا كان إنصافه ﷺ نفسَه من أمته، مع عظيم مكانته في قلوب أصحابه، وما ذلك إلا تحقيقًا لكمال العدالة، وتمام القسط بين الناس.

☼ وقد كانت حياته ﷺ الخاصة آية من آيات العدل البشري؛ عدلاً ملازمًا له في حلِّه وترحاله؛ بل وهو على فراش الموت ﷺ، بأبي هو وأمي وفداه نفسي وولدي!!

تقول عَائِشَةُ رَضِيَ الله عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا، وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا؛ فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتَ عِنْدَهَا»[3].

☼ وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ؛ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٦)، ومن طريقه أبو نعيم في معرفة الصحابة (ق ٣٠٣/ ١)، وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٣٣٢)، وحسن الألباني إسناده في الصحيحة (٢٨٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١)، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه أبو داود (٢١٣٥)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٧٩). و(المسيس): الجماع.

وَلَيْلَتَهَا...»[١].

☼ ومع نزول الموت به ﷺ، واشتداد مرضه؛ إلا أنه كان حريصًا أشدَّ الحرص على العدل بينهنَّ، رغم المشقة الشديدة التي تحصل له من تنقلِّه؛ حتى أذِنَّ له في أن يمرض في بيت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا.

☼ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ الله عَنْهَا: «لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ وَاشْتَدَّ وَجَعُهُ؛ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلَاهُ الأَرْضَ...»[٢].

☼ وكان ﷺ يعدل بين نسائه، ويتحمل ما قد يقع من بعضهنَّ من غيرة، كما كانت عائشة رضي الله عنها غيورة.

☼ فعَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: أَهْدَتْ بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا فِي قَصْعَةٍ، فَضَرَبَتْ عَائِشَةُ الْقَصْعَةَ بِيَدِهَا، فَأَلْقَتْ مَا فِيهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**طَعَامٌ بِطَعَامٍ، وَإِنَاءٌ بِإِنَاءٍ**»[٣].

فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ، مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ[٤].

☼ وكان مع إقامته العدل بينهن؛ يُطَيِّبُ خاطرَ من أُسِيء إليها، وينصحُ

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٤)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٥)، ومسلم (٤١٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٣٥٩)، واللفظ له، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٣٥٩)، وهو عند البخاري بتفصيل أتم، كما تقدم ص٧٤.

(٤) انظر: البخاري (٥٢٢٥)، وتقدم بتمامه في مبحث حلمه وعفوه وصفحه ﷺ ص٧٤.

الأخرى، ويُذَكِّرُها بالله.

كما فعل بين صفية وحفصة رضي الله عنهما، عندما بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ عنها: بِنْتُ يَهُودِيٍّ. فبَكَتْ، فلما دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ ووجدها تَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكِ؟» فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟**» ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقِي الله، يَا حَفْصَةُ**»[1].

☼ وكان ﷺ مع قيامه بالعدل في جميع شئونه وأحواله؛ يُرَغِّب أصحابه فيه ويحثهم عليه، ويرشدهم إلى ما يعينهم على تحقيقه.

☼ ويقول لمن يتولَّى الحكْم والقضاء بين الناس: «**... فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الخَصْمَانِ؛ فَلاَ تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخَرِ، كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ**»[2].

☼ وكان ﷺ ينهى كذلك عن مصادرة حقِّ الفرد في الدفاع عن نفسه؛ تحرِّيًا للعدالة، فيقول: «**... فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً...**»[3].

☼ **ولم يكنْ هذا العدلُ المحمَّدي، الذي لم تعرف له البشريةُ نظيرًا، قاصرًا على**

---

(١) أخرجه أحمد (١١٩٨٤)، والترمذي(٣٨٩٤)، وابن حبان في صحيحه (٧٢١١)، وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٥٥). وقد تقدم.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١)، وأحمد (٨٨٢)، من حديث عليٍّ ﷺ، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره. وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٨٣)، ومسلم (١٦٠١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

المسلمين وحدَهم؛ بل يمتدُ لينعـمَ به غيرُ المسلمين أيضًا؛ فسنَّ الرسولُ ﷺ ما يحمي حياةَ غير المسلمين، ويحفظُ أعراضَهم وأنفسَهم مِـن كـلِّ سـوء، ويـضمنُ لهـم أن ينعموا بالعدْلِ؛ فحذَّر ﷺ مِن ظُلمهم أو انتقاص حقوقهم، وجعل نفسه الشريفة خصمًا للمعتدى عليهم، فقال ﷺ: «**مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ حَقًّا، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

وعَنِ ابْنِ أَبِي حَدْرَدٍ الأَسْلَمِيِّ ﷺ، أَنَّـهُ كَـانَ لِيَهُـودِيٍّ عَلَيْـهِ أَرْبَعَـةُ دَرَاهِـمَ، فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ لِي عَلَى هَذَا أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، وَقَدْ غَلَبَنِـي عَلَيْهَـا». فَقَالَ ﷺ: «**أَعْطِهِ حَقَّهُ**». قَالَ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا».

قَالَ ﷺ: «**أَعْطِهِ حَقَّهُ**». قَالَ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا، قَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ تَبْعَثُنَا إِلَى خَيْبَرَ فَأَرْجُو أَنْ تُغْنِمَنَا شَيْئًا فَأَرْجِعُ فَأَقْضِيهِ».

قَالَ: «**أَعْطِهِ حَقَّهُ**». وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَالَ ثَلَاثًا لَمْ يُرَاجَعْ.

فَخَرَجَ بِهِ ابْنُ أَبِي حَدْرَدٍ إِلَى السُّوقِ وَعَلَى رَأْسِهِ عِصَابَةٌ وَهُـوَ مُتَّـزِرٌ بِـبُرْدٍ، فَنَـزَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ فَاتَّزَرَ بِهَا، وَنَزَعَ الْبُرْدَةَ فَقَالَ: «اشْتَرِ مِنِّي هَذِهِ الْبُرْدَةَ»، فَبَاعَهَـا مِنْـهُ بِأَرْبَعَةِ الدَّرَاهِمِ(٢)!!

ومن روائـع مواقفه ﷺ في هذا الشأن ما حـدث مع الأنصار في خيبر؛ حيث قُتِل عبد الله بن سهل الأنصاري ﷺ، وقد تمَّ هـذا القتـل في أرض اليهـود، وكـان

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٠٦٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٠٨).

الاحتمال الأكبر والأعظم أن يكون القاتل من اليهود.. ولمَّا لم تكن هنـاك بيِّنـةٌ عـلى هذا الظنِّ، والأمر في مجال الشكِّ والظنِّ؛ فلم يُعاقِـب رسـولُ الله ﷺ اليهـود بـأي صورة من صور العقاب، بل عرض فقط أن يحلفوا على أنهم لم يفعلوا!

فقام رسول الله ﷺ هنا بما لا يتخيَّله أحدٌ؛ حيث تولَّى بنفسه ﷺ دَفْـعَ الدِّيَـةِ مـن أموال المسلمين؛ لكي يهدِّئ من روع الأنصار، ودون أن يظلم اليهـود.. فلتتحمـل الدولة الإسلاميَّة العبء؛ في سبيل ألاَّ يُطَبَّق حَدٌّ فيه شُبْهَةٌ على يهودي[1].

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، ومسلم (١٦٦٩).



وفاؤه ﷺ بالعهد ورعايته له

☼ كان رسول الله ﷺ أوفى الناس بالوعد، وأصدقهم وأرعاهم للعهد؛ شهد له بذلك أعداؤه قبل أصحابه؛ فقد شهد أبو سفيان بن حرب قبل إسلامه لعظيم الروم - هرقل - عندما استشهده على رسول الله ﷺ، حينما جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه للإسلام، قال هرقل لأبي سفيان: «سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ. قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ»[1].

وَفَاءٌ بِهِ ازْدَانَتْ أَبَاطِحُ مَكَّةَ ... وَعَزَّ بِهِ ثَوْرٌ وَتَاهَ حِرَاءُ

☼ وقد كان وفاؤه ﷺ مع ربِّه عزَّ وجلَّ أعظم الوفاء؛ وفاء بالميثاق الأول الذي أخذه الله على عباده في عالم الذرِّ؛ من العهد على الإيمان به؛ فكان ﷺ في قمة الوفاء بذلك العهد؛ فنشأ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، ولم يسجد لصنمٍ قط؛ بل نشأ على بُغض الأصنام، وبغض سائر أعمال الجاهلية.

☼ ووفاء بعهد الله لأنبيائه ورسله بإبلاغ رسالته؛ فقام ﷺ بالبلاغ المبين أحسن قيام، واستشهد على ذلك أمته: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ. وأشهدَ ربَّه عزَّ وجلَّ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[2].

وشهد له ربُّه عزَّ وجلَّ بإكمال الدين وإتمام النعمة عليه وعلى أمته ﷺ؛ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨١).

(٢) جزء من حديث صحيح في حجة الوداع؛ أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

دِينًا ﴾. [المائدة: ٣].

☼ **وأما وفاؤه لأزواجه ﷺ** فلم يعرف الوفاء له نظيرًا!! وكيف لا وفي القرآن - الذي هو خُلُقه -: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]؟!

☼ وقصة وفائه لخديجة رضي الله عنها، وحفظه لعهدها وودِّها، هي أعظم وأروع قصص وفاء زوجٍ لزوجه!!

☼ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا وَلكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِر ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ؛ فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَدِيجَةُ فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**»[1].

☼ وتقول عائشة رضي الله عنها: «اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، أُخْتُ خَدِيجَةَ، عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاعَ لِذَلِكَ؛ فقال: «**اللَّهُمَّ هَالَةَ**»، قالت: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ الله خَيْرًا مِنْهَا»[2].

قَالَتْ: فَتَمَعَّرَ وَجْهُهُ تَمَعُّرًا، مَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عِنْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ، أَوْ عِنْدَ الْمَخِيلَةِ، حَتَّى يَنْظُرَ أَرَحْمَةٌ أَمْ عَذَابٌ[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٨)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٦)، ومسلم (٢٤٣٧)، و(حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ): العجوز التي سقطت أسنانها من الكِبَر. وعند مسلم (فارتاح لذلك): أي هشَّ لمجيئها.

(٣) أحمد في المسند (٥٢١٧١)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه =

إن وفاءه ﷺ لخديجة رضي الله عنها، لم يكن أمرًا متكلفًا أو عارضًا، بل كان عن حبٍّ عظيم ووفاءٍ أصيل؛ حتى يرتاع لمن يُذَكِّرُه بها ويتغير؛ وكأني به وبأبي هو وأمي، كأني به وهو يهتز لذلك فرحًا وسرورًا، ويخفق قلبه الطاهر الشريف شوقًا لعهد خديجة رضي الله عنها، وبكلِّ ما يُذكِّره بها.

تقول عائشة رضي الله عنها: إن عجوزًا جاءت إلى النبي ﷺ فأقبل عليها، فقالت عائشة رضي الله عنها: «تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال!!» فقال: «**إنَّها كانتْ تَأتينا زَمن خَدِيجةَ، وإنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمانِ**»[1].

فهكذا كان وفاؤه ﷺ لزوجه التي قد واراها الثرى منذ زمن؛ فلم يَنْسها ولم ينْسَ معروفَها قطُّ.

وكذلك كان وفاؤه ﷺ لسائر أزواجه؛ فلما أنزل الله عزَّ وجلَّ آية التخيير[2]؛ بدأ بعائشة رَضِيَ الله عَنْهَا، وقال لها: «**يَا عَائِشَةُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَلَّا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ**»؛ وفاءً منه لهذه الزوجة التي هي حديثة السنِّ، وقد تَغْفُل مَنْ هي في سنِّها مصلحتَها الكاملة، وتلا عليها الآية، لكنها-

---

=

الألباني، كما في الضعيفة (١٣/ ٤٨٥). و(تَمَعَّرَ): تغير لونه؛ كناية عن الغضب. و(المَخيلة): السحابة التي يُظن أن فيها مطرًا.

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٠) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٢٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٦).

(٢) وهي قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨،٢٩].

رَضِيَ الله عَنْهَا، وهي التي عاشرته ورأت عظيم أخلاقه وروائع سجاياه- لم تكن أبدًا لتختار غيره ﷺ ولو كانت الدنيا وزينتها كلها؛ فتعلنها صريحة واضحة مجلجلة: «أَفِيكَ يَا رَسُولَ الله أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟!! بَلْ أَخْتَارُ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ».

ثم قالت رَضِيَ الله عَنْهَا: «وَأَسْأَلُكَ أَلَّا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ». قَالَ: **«لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا؛ إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»**[1].

☼ وإنما كان يخبرهن بهذا الذي اختارته رَضِيَ الله عَنْهَا؛ لأنه هو الخير، وهو ﷺ لا يريد لهنَّ إلا الخير؛ وفاء لهنَّ على صبرِهنَّ على لأواء المعيشة التي كان عليها، وطولِ الصحبة التي أمضينها معه[2].

☼ **وأما وفاؤه ﷺ لأقاربه؛** فقد بلغ قمة الوفاء في الكمال والعظمة!! هذا مع بقائهم على كفرهم وشركهم!!

وقصة وفائه لعمه أبي طالب، الذي رباه صغيرًا إلى أن بلغ أشدَّه، بعد وفاة جـدِّه عبد المطلب، ثم نصرته له ومنعه إياه من سفهاء قومه وتعرضهم له، فلمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، وهو على شركه، اهتزت مشاعر الوفاء في نفس سيد الأوفياء ﷺ فكان حريصًا أشدَّ الحرص على نفعه وإنقاذه من النار، وجعل يترجاه أن يُسلِم، ويناشده قائلاً: **«أَيْ عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله»**.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٨).

(٢) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، أحمد الحداد (٢/ ٥٦٧)، بتصرف.

فما زال به أئمة الكفر حتى مات على كفره؛ فَقَالَ أَبو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: «يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

فحزن النبي ﷺ لذلك حزنًا شديدًا، ولم يزل يُغالبُه عظيمُ وفائه له، حتى قال: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**».

فَنَزَلَتْ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَنَزَلَتْ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦][1].

☼ وامتد هذا الوفاء العظيم ليشمل أقاربه من الرضاعة؛ حيث ظل ﷺ يعترف لهم بالفضل، ويتحين فُرَصَ الوفاء لهم؛ حتى إذا ما سنحت واحدةٌ بادر إليها.

☼ ومن ذلك ما كان يوم حنين؛ حيث سبى المسلمون في ذلك اليوم من هوازن وثقيف النساء والذراري والأموال، وكان منهم من بني سعد بن-بكر، الذين تنتسب إليهم حليمة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ.

فجاء رجل منهم يُقَال لَهُ: أَبُو جَرْوَلٍ زُهَيْرُ بْنُ صُرَدٍ؛ فَقَالَ: يا رسول الله، نساؤنا: عَمَّاتك وخالاتك وحواضنك اللائي كفلنك، وَلَو أَنا ملحنا- أي أرضعنا- لِلْحَارِثِ بن أبي شمر والنعمان بن الْمُنْذر، ثمَّ نزل بِنَا مِنْهُ الَّذِي أنزلت بِنَا؛ لرجونا عطفه وعائدته علينا، وَأَنت خير المكفولين، ثمَّ أَنْشد قصيدة طويلة، ومما جاء فيها:

أُمْنُنْ علينا رَسُـولَ الله فِي كـرمٍ ... فَإِنَّـك الْمَـرْء نرجـوه ونـدخر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤)، من حديث المسيَّب بن حزن ﷺ.

أُمْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تُرْضِعُهَا إِذْ فُوكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا الدُّرَرُ

فلم يكن ليتأخر رسول الله ﷺ، صاحب الخلق العظيم، عن الوفاء الذي طال ترقُّبُه له!!

فَقَالَ: «**إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وَأَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ؛ فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا المَالَ وَإِمَّا السَّبْيَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ**»، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ.

قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا.

فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ، فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ؛ فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ الله عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ**».

فَقَالَ النَّاسُ: طَيَّبْنَا لَكَ ذَلِكَ. قَالَ: «**إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ؛ فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ**».

فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا[1].

---

(١) أخرجه البخاري مختصرًا (٢٥٤٠)، من حديث المِسْوَر بْن مَخْرَمَةَ ﷺ. و(عُرَفَاؤُكُمْ): جمع عريف، وهو القائم بأمور الناس ومصالحهم. وانظر القصة كاملة في تغليق التعليق على صحيح البخاري للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٧٣، ٤٧٤)، والطبراني في الكبير (٥٣٠٣)، والصغير (١/ ٢٣٦، ٢٣٧)، والأوسط (٤٦٣٠)، وفي دلائل النبوة (٥/ ١٩٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٥٢).

فهكذا كان وفاؤه ﷺ لمن يمتُّ إليه بقرابة الرضاعة؛ لقد ظل مستأنيًا بهم، يريدُ أن يردَّ إليهم ماغنِمَه منهم، ولما لم يأتوا، وتملَّكها أصحابُه ﵃، غنيمة حلالاً طيبًا؛ بذل جهده في إعادة السبي، الذي هو أكرم لهم من المال وأعزُّ؛ فلله ما أعظمه من وفاء!!

☼ وأخبار وفائه ﷺ لمراضعه وإخوانه من الرضاعة كثيرة، عامرة بها كتب الحديث والشمائل والسير.

☼ **وأما وفاؤه ﷺ لأصحابه**؛ فوفاء لم يسمع بمثله البشر!! ولم يكن وفاء قاصرًا على حال حياتهم فحسب؛ فهذا قد يحُسِنُ بعضَه الكثير!! لكنه وفاء ممتد بعد الوفاة!! وهو الوقت الذي لا يحفظ فيه الوفاء إلا صاحب الخلق العظيم!!

☼ وفاء في الأهل والولد، وفاء في قضاء الدين؛ يقول ﷺ: **«أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؛ مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»**[1].

☼ وياله من وفاء للعهد ورعاية للود، وصيانة للمعروف؛ ذلك الذي يضربه لنا رسول الله ﷺ مع الأنصار، بعد فتح مكة، في موقف رائع مؤثرٍ مُبكٍ!!

☼ فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁، قَالَ: لمَّا أَعْطَى رَسُولُ الله ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا في قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْيَكُنْ في الأَنْصَارِ مِنْهَا شيء، وَجَدَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ في أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ الله ﷺ قَوْمَهُ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ هَذَا الحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ في أَنْفُسِهِمْ؛ لمِاَ صَنَعْتَ في هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ؛ قَسَمْتَ في قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧)، من حديث جابر بن عبد الله ﵁. و(الضياع): الذرية والأبناء.

عَطَايَا عِظَامًا في قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ في هَذَا الحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَنَا إِلاَّ امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَاجْمَعْ لي قَوْمَكَ في هَذِهِ الحَظِيرَةِ».

فَلمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ، فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتمُوهَا في أَنْفُسِكُمْ؟! أَلَمْ تكونوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ الله، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ الله، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ الله بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟».

قَالُوا: بَلِى، الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ.

قَالَ: «أَلاَ تجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟».

قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ الله، ولله وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالْفَضْلُ؟!.

قَالَ: «أَمَا والله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ، وَلَصُدِّقْتُمْ؛ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ.

أَوَجَدْتُمْ في أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؛ في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ؟!

أَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ في رِحَالِكُمْ؟

فَوَالَّذِي نَفْسُ محُمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنصارُ شِعْبًا؛ لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ».

قَالَ: فبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لحِاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ الله ﷺ قِسْمًا

وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا»[1].

☼ وكتب السيرة والأحاديث الصحيحة الثابتة عنه ﷺ، مليئة بالمواقف العظيمة والخالدة، في ضربه لأروع الأمثال في الوفاء بالعهد.

☼ وإذا كان المرء يأخذه العجب والدهشة، وهو يقرأ هذه القصص الرائعة؛ إلا أن ذلك كلَّه يتضاءل أمام قصص وفائه ﷺ لأعدائه، الذين مافتئوا يجتهدون في الكيد له ولأصحابه ﷺ، مكايد عظيمة، ورغم ذلك لم يتخلف وفاؤه لهم قط، حتى شهدوا هم أنفسهم بذلك![2].

وقد كان لرسول الله ﷺ مواقف عديدة من الوفاء بالعهد مع المشركين واليهود.

☼ ومن ذلك وفاؤه ﷺ للمشركين بشروط عقد صلح الحديبية؛ تلك الشروط التي امتعض منها كثير من أصحابه؛ لما رأوا فيها من قسوة وظلم للمسلمين؛ وكان من تلك الشروط: «أن من أتى المسلمين من المشركين ردوه إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه».

فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَكْتُبُ الْكِتَابَ؛ إِذْ جَاءَهُ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، فِي الحْدِيدِ، قَدِ انْفَلَتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى سُهَيْلٌ أَبَا جَنْدَلٍ قَامَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا محُمَّدُ، قَدْ لجُتَّ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٤٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وابن هشام في سيرته (٢/ ٣١٠، ٣١١)، وصححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ص ٤١٨، وذكره ابن كثير في البداية (٤/ ٣٥٨، ٣٥٩) وقال: وهو صحيح. وأصله في الصحيحين؛ البخاري (٣٧٧٨)، ومسلم (١٠٥٩)، و(لُعَاعَة) : بقية يسيرة .

(٢) كما في قصة أبي سفيان مع هرقل عند البخاري (٢٦٨١)، وتقدمت قريبًا.

قَالَ: «صَدَقْتَ»، فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ.

وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، أَتَرُدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟!!

وإنها لصرخة تهزُّ الوجدان، ولكن هيهات أن تؤدي إلى إخلال بالوفاء من صاحب الخلق العظيم ﷺ!!

فطيب رَسُولُ الله ﷺ خاطره، وفتح له باب الأمل والرجاء والثقة بالله، وبيَّن له أن أخلاق النبوة والإسلام ليس فيها إلا الوفاء، وليس فيها غدر أبدًا، وقال له: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا؛ فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ»[1].

ومن وفائه ﷺ لأعدائه أيضًا على هذا النحو؛ إرجاعه أبا بصيرٍ إليهم بعدما جَاءَهُ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ؛ فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا بِهِ[2].

ومن ذلك ما يحكيه أَبو رَافِعٍ ﷺ، قَالَ: بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي والله، لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٣١)، وحسن الأرناؤوط إسناده في تعليقه على المسند (٣١/ ٢٢٠)، وأصله عند البخاري (٢٧٣٤)، و(انْفَلَتَ): تخلص وفر وهرب في خفية، و(لجَّت): وجبت؛ أي فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا. و(تَلِبيبه): التلبيب: مجمع الثياب عند النحر.

(٢) قصة أبي بصير عند البخاري (٢٧٣٤).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ، وَلَكِنِ ارْجِعْ؛ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الآنَ فَارْجِعْ» قَالَ: فَذَهَبْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَسْلَمْتُ[1].

ومن روائع قصص وفائه ﷺ لأعدائه؛ تلك القصة العجيبة، التي يقف المرء أمامها مشدوهًا منبهرًا، غير متصور أن يحدث مثل ذلك؛ لولا أن ذلك حدث حقيقة!!

وتأمل معي، أيها القارئ، تلك الروعة، وانظر هل توافقني الرأي؟!!

يقول حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ﷺ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ. قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ؛ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ؛ فَقَالَ: «انْصَرِفَا؛ نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ»[2]!!

إنها قريش التي حاربت دعوة الحق، وآذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله!!

إنها قريش التي قتلت سمية وعمارًا ظلمًا، وعذبت بلالاً والمستضعفين، بل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٤٥)، وأبو داود (٢٧٥٨)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٧٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٠٢). و(لا أَخِيسُ بالعَهد): أي لا أَنْقُضه. و(لا أحْبسُ البُرْد): أي: لا أحبس الرسُل الوارِدين عليَّ.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٧).

وأجمعت أمرها لتقتل سيد الخلق ﷺ!!

ثم إنها معركة فرقان، والمسلمون قلة، والمشركون كثرة!!

نعم إن ذلك كلّه حق؛ ولكنه الوفاء العظيم؛ «**نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ الله عَلَيْهِمْ**»!!.

☼ وإن تعجب فاعجب لوفائه ﷺ للحيوان البهيم!!

☼ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ، قال: كَانَتِ امْرَأَةٌ من الأنصار أَسَرَهَا الْعَدُوُّ، وَأُصِيبَتِ الْعَضْبَاءُ، وكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ، وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُون نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ؛ فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ، فَأَتَتِ الإِبِلَ، فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا فَتَتْرُكُهُ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ فَلَمْ تَرْغُ. قَالَ: وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ، فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا، ثُمَّ زَجَرَتْهَا، فَانْطَلَقَتْ، وَنَذِرُوا بِهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ.

قَالَ: وَنَذَرَتْ لله إِنْ نَجَّاهَا الله عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، فَلَمَّا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ فَقَالُوا: الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا الله عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا.

فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ الله!! بِئْسَمَا جَزَتْهَا؛ نَذَرَتْ لله إِنْ نَجَّاهَا الله عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا!! لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ**»[1].

فقد تعجب ﷺ من صنيع هذه المرأة؛ لأنه كان يقتضي الوفاء لهذه الناقة وحسن المجازاة لها؛ أن يُحسَن إليها في الإطعام والرعاية، لا أن تُذبح!!

☼ وإذا كان الوفاء لحيوان بهيم عجيبًا؛ فكيف بالوفاء لجهاد؟!!

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٤١)، وأحمد (١٩٣٦٢). و(الْعَضْبَاءُ): ناقة مشقوقة الأذن، وهو لقب ناقة رسول الله ﷺ، و(مُنَوَّقَةٌ): مُذَلَّلَة، و(عَجُزِهَا): مؤخرتها، و(نَذِرُوا): أحسوا بهربها.

إنه وفاء سيد الأوفياء لِجِذْعٍ جمادٍ، كان يخطب إليه، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ ذَهَبَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ، فَأَتَاهُ فَاحْتَضَنَهُ فَسَكَنَ. فقال ﷺ: «لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨٣)، و(الحنين): صوت كالأنين، ويكون عند الشوق، وتوصف به الإبل، وتقدم تخريجه.

كرمه وجوده وسخاؤه ﷺ

فهو أكرم من خلق الله، وأزكى البرية نفسًا، وأكرمهم عشرة، وأجودهم كفًا ويدًا، فكفّه غمامة بالخير، ويده غيث الجود، بل هو أسرع بالخير من الريح المرسلة.

ولا جرم أن يكون هذا موقعه من الكرم، الذي هو جامع لمكارم الأخلاق؛ وهو الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ﷺ (1).

وهو الذي شهد له أكرم الأكرمين، عزَّ وجلَّ، بالكرم، شهادة مؤكدة بقسمه؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. [الحاقة: ٣٨-٤٠]

فوصفه سبحانه في هذا الموضع بالكرم دون غيره من أخلاقه العظيمة؛ كالصدق والأمانة؛ لكون كلِّ هذه الأخلاق مندرجة فيه؛ فأخلاقه ﷺ كلُّها عظيمة كريمة، ولأنهم رأوا آثار هذا الكرم ويعرفونها جميعًا، حتى قبل بعثته ﷺ (2).

تصفه زوجه خديجة رضي الله عنها، لما جاءها فزِعًا بعد نزول الوحي عليه أول مرة، وهي تهدئ من روعه؛ فتقول له: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ،

---

(1) روى الحاكم في مستدركه (٢/٦٧٠) وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ». وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥).

(2) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٢/٦٤٧) بتصرف.

وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[1].

هكذا تصفه رضي الله عنها، بهذه الصفات البالغة عظمةً ودلالةً على بالغ كرمه وعظيم جوده ﷺ!!

☼ وهذا كله قبل أن يكرمه الله بالنبوة؛ فكيف يكون كرمه بعد بعثته ونبوته؟!! كيف يكون كرمه وقد أدَّبه ربُّه وأحسن تأديبَه[2]؟!! كيف يكون كرمه وقد نزل عليه القرآن؛ الذي هو خُلُقُه ﷺ؟!!

☼ فلا جرم أن يكون ﷺ أكرم الناس وأجود الناس، ولم يمنع يومًا أحدًا شيئًا سأله إياه، بل كان ينفق مع العدم، ويعطي مع الفقر، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر؛ فهو سيِّدُ الأجواد على الإطلاق.

☼ شهد له بذلك أعداؤه قبل أصحابه ﷺ؛ يقول أحدهم ـ وقد أدهشه هذا الكرم؛ فأسلم ولم يجد بُدًّا من محبته ﷺ ـ يقول: أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة، رضي الله عنها. و(الْكَلَّ): العاجز الضعيف الذي يحتاج لمن يعوله، و(تَكْسِبُ) وضُبط (وَتُكْسِبُ) بضم أوله، ورجحه النووي في شرح مسلم، ومعناها: تعطي الناس مالا يجدونه عند غيرك، و(المَعْدُومَ): المفلس أو الفقير، و(تَقْرِي): القِرَى: الضيافة وحسن الوفادة، (ونوائِبِ الحَقِّ): النوائب: المصائب. أي: إذا وقعت نائبة لأحد في خير أعنت فيها، وقمت مع صاحبها.

(٢) لم يثبت حديث «أدَّبني رَبِّي فأَحْسَنَ تَأدِيبِي»، ولا يعرف له إسناد ثابت، لكن المعنى صحيح، كما قال ابن تيمية في «المجموع» (١٨/ ٣٧٥). وانظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني، ص٣٢٧، واللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للزركشي، ص١٦٠، والدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي، ص ١٦٠، والضعيفة للألباني (٢١٨٥).

لَأَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ!!»[1].

☼ وكان كرمه وجوده ﷺ مشهورًا مستفيضًا عند أصحابه ﷺ، بل متواترًا عندهم.

☼ يصفه خادمه أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ، فيقول: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ[2].

☼ ويقول ابْنُ عُمَرَ ﷺ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَنْجَدَ، وَلَا أَجْوَدَ، وَلَا أَشْجَعَ، وَلَا أَضْوَأَ وَأَوْضَأَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ[3].

☼ ويقول جَابِر بْن عَبْدِ الله ﷺ: مَا سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَ: لَا[4].

ما قال [لا] قطُّ إلا في تشهدِه ... لولا التشهدُ كانتْ لاؤهُ نعم[5]

وكان لا يردُّ طالب حاجة، حتى مع حاجته هو نفسه ﷺ لها!!

☼ وكحِّل عينَيك -أيها القارئ- لترى موقفًا من مواقفه العظيمة في الكرم والبذل والجود، لا نظير له - بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام!!

☼ عن سهل بن سعد ﷺ: أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ؛ قَالَتْ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٦٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٦٦٦)، وأصله عند مسلم (٢٢١٣) مختصرًا، والقائل هو: صَفْوَان بْن أُمَيَّةَ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٣) أخرجه الدارمي (٥٩)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق(٣٩٦)، ورجال إسناده ثقات. و(أنجَد): أسرع في النجدة، وهذا دليل على عظم شجاعته ﷺ. و(أوضأ): أجمل وأحسن.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٥) قاله الفرزدق في زين العابدين رحمه الله.

نَسَجْتُهَا بِيَدِي، فَجِئْتُ لأَكْسُوَكَهَا.

فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ الله، اكْسُنِيهَا.

فَقَالَ: «نَعَمْ» فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي المَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ؛ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ!! قَالَ: إِنِّي والله، مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهُ؛ إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي. قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ[1].

إذا كان هذا هو عطاءه ﷺ حال عُسْره وحاجته؛ فكيف يكون عطاؤه حال اليسار؟!!

تعوَّد بسطَ الكفِّ حتى لو أنَّه	ثناها لقبضٍ لم تُجبه أنامله
تراه إذا ما جئتَه مُتهللاً	كأنك تُعطيه الذي أنت سائله
هو البحر من أيِّ النواحي أتيتَه	فلُجَّتُه المعروف والجود ساحله
لو لم يكن في كفِّه غيرُ روحِه	لجادَ بها فليتقِ اللهَ سائلُه[2]

فكان أسعدَ بالعطية يعطيها من السائل، وكان يأمر بالإنفاق والكرم والبذل، ويدعو للجود والسخاء، ويذمُّ البخلَ والإمساك.

لو تحول جبل أُحُدٍ من الحجارة إلى الذهب ثم صار ملكًا له؛ ما سره ذلك حتى

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٧)، و(البُرْد): رداء يلبس فوق الثياب، أو كساء مخطط.

(٢) قاله أبو تمام في مدح المعتصم، ديوان أبي تمام، ص١٥، وعزاه ابن رجب في لطائف المعارف، ص١٩٥ لبعض الشعراء، يمدح فيها بعض الأجواد، وقال: وما تصلح إلا أن تكون للرسول

ينفقه في سبيل الله!! يقول أَبُو ذَرٍّ ﷺ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ»؛ فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلا شَيْءٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ، إِلا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ-» ثُمَّ مَشَى، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا- عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ- وَقَلِيلٌ مَا هُمْ...»[1].

ﷺ وتلك حقيقة سجَّلها أصحابُه بعيدة عن التزيد والمبالغة؛ فقد جاءته الكنوز من الذهب والفضة وأنفقها في مجلس واحد، ولم يدَّخِر منها درهمًا ولا دينارًا ولا قطعة.

ﷺ ولما جاءه مَالُ الْبَحْرَيْنِ، وكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ»؛ إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَعْطِنِي؛ إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً. قَالَ: «خُذْ».

فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ. فَقَالَ: أُمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ. قَالَ: «لَا». قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: «لَا».

فَنَثَرَ مِنْهُ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَقَالَ: فَمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ. قَالَ: «لَا». قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: «لَا».

فَنَثَرَ مِنْهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَمَا زَالَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٦٨)، ومسلم (٩٤). و(الحرّة): كل أرض ذات حجارة سود.

عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ!! فَمَا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ"[1].

☼ ويجمع الغنائم ويوزعها في ساعة، ولا يأخذ منها شيئًا، وأعطى غنمًا بين جبلين[2].

☼ ولم يكن ﷺ ينتظر حتى يأتي سائل ليعطيه؛ بل كان يبتدئ بالنوال قبل السؤال، كلما وجد عنده المال، بل إنه ﷺ كان يتضايق من بقاء المال عنده إذا لم يتهيأ له إنفاقه!!

☼ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ سَاهِمُ الْوَجْهِ. قَالَتْ: فَحَسِبْتُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ وَجَعٍ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، مَا لَكَ، سَاهِمُ الْوَجْهِ؟! قَالَ: **«مِنْ أَجْلِ الدَّنَانِيرِ السَّبْعَةِ، الَّتِي أَتَتْنَا أَمْسِ، أَمْسَيْنَا ولم نَقْسِمْها، وَهِيَ فِي خُصْمِ الْفِرَاشِ»**[3]!!.

☼ وعن جُبَيْر بْن مُطْعِمٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ بَيْنَا هُوَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَمَعَهُ النَّاسُ مُقْبِلاً مِنْ حُنَيْنٍ؛ عَلِقَتْ رَسُولَ الله ﷺ الأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ، حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ. فَوَقَفَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: **«أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٥)، ومسلم (٢٣١٤)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. و(حَثَا): الحثي: الأخذ بملء الكفين. وإنما لم يُرد النبي ﷺ أن يرفعه عليه؛ لأنه رأى شدَّة حرصِ العباس رضي الله عنه، ولكمال كرمه، وبالغ سماحته وجوده ﷺ لم يمنعه ولم يعترض عليه، وتركه يغترف ما شاء حتى عجز.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٩٧٥)، والبيهقي في الكبرى (١٢٨٠٩)، وابن حبان في صحيحه (٥١٦٠)، وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند (٤٤/ ٢٧٢): إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. و(ساهم): أي من أثر التفكير والهمِّ. و(خُصْم): طرف الثوب.

الْعِضَاهِ نَعَـمًا، لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا»(١).

☼ هذا هو بعض كرمه ﷺ مائدته معروضة لكل قادم، وبيته قبلة لكـل وافـد، يضيف وينفق، ويعطي الجائع بأكله، ويؤثر المحتاج بذات يده، ويصل القريـب بـما يملك، ويواسي المحتاج بما عنده، ويُقدِّم الغريبَ على نفسه.

☼ فكان ﷺ آية في الجود والكرم، ويَجودُ جُودَ من هانت عليه نفسه وماله وكـلُّ ما يملك في سبيل ربِّه ومولاه، فهـو أنـدى العـالمين كفًّـا، وأسـخاهم يـدًا، غمـر أصحابه وأحبابه وأتباعه، بل حتى أعداءه ببرِّه وإحسانه وجوده وكرمه وتفضله(٢).

☼ أكل اليهود على مائدته، وجلس الأعـراب عـلى طعامـه، وحـفَّ المنـافقون بسفرته، ولم يُحفظ عنه ﷺ أنه تبرَّم بضيف، أو تـضجَّر مـن سـائل، أو تـضايق مـن طالب، بل جـرَّ أعرابيٌّ بردَه حتى أثَّر في عنقـه، وقال له: أعطني من مال الله الـذي عندك، لا مِنْ مال أبيك وأمِّك، فالتفت إليه ﷺ وضحك وأعطاه(٣).

☼ **ومع هذا العطاء والسخاء في اليد؛ إلا أن سـخاءه منقطـع النظـير في الجـود والبذل وطيب النفس وحسن المعاشرة وصدق المحبة؛** فكـان مـن عادتـه أن يَـبَشَّ ويبتسم إلى كل مَنْ يجلس إليه، حتى يَظُنَّ أنه أحبُّ أصحابِه إلى قلبِه.

☼ قد وسع النَّاسَ برُّه؛ طعامُه مبذولٌ، وكفُّه مدرارٌ، وصدرُه واسـعٌ، وخلُقُـه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢١)، و(سَمُرَةٍ): نوع مـن شـجر الطَّلْـح. و(الْعِـضَاهِ): شـجر عظيـم لـه شوك.

(٢) محمد ﷺ كأنك تراه، للشيخ عائض القرني، بتصرف يسير، ص١٦.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧)، وتقدم في عفو النبي ﷺ.

سهلٌ، ووجهُه بسَّامٌ.

يقول أنسٌ ﷺ، خادم رسول الله ﷺ، وهو يصف شيئًا من تلك الصفات العظيمة والخصال الكريمة، التي قلَّ أن تجد بعضها في رجل، أو أن تجتمع في أناس- يقول: «كان رسول الله ﷺ أشدَّ النَّاسِ لُطفًا؛ فما سأله سائلٌ قطُّ إلا أصغى إليه؛ فلا ينصرف رسول الله ﷺ حتى يكون السائل هو الذي ينصرف، وما تناول أحدٌ يدَه قطُّ إلا ناوله إياها، فلا ينزع ﷺ يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها منها»[1].

وقد فاق جوده ﷺ كلَّ جود؛ فجاد بجاهه الشريف، وجاد بوقته وراحته؛ تعبًا وكدًّا في مصلحة أمته من ذكر وأنثى وحرٍّ وأَمة!!

غَيثٌ يَجودُ بمالِه وبجَاهِه ... والجُودُ كُلُّ الجودِ بذلُ الجاهِ

يقول أنس بن مالك ﷺ: «**إن كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءتْ**»[2]!!.

وكان ﷺ يَحثُّ على بذل الجاه والشفاعة لأصحاب الحاجات ليبلغوا حاجاتهم؛ ويعد بالأجر فيما أُنزِل عليه من الذِّكر؛ ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] ويندبُ إلى ذلك؛ فيقول ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا**»[3]، ويَعِدُ على ذلك بالأجر الجزيل، فيقول ﷺ: «... **وَمَنْ مَشى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتى**

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (١١٦)، وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣٩١٦). وانظر: صحيح الجامع (٤٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٧٢) معلّقاً، وجزم به.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٧٦)، ومسلم (٢٦٢٧).

يَتَهيأ لَهُ، أثبَتَ اللهُ قَدمَهُ يَومَ تَزولُ الأَقدَامُ»[1].

ﷺ ويثبت ذلك بفعله ﷺ؛ فيشفع لمُغِيث؛ ذلك العبد الأسود الذي فارقته امرأته بعد أن أعتقت؛ فكَانَ يطوف خلفهَا ويبكي ودموعه تسيل على لحيته؛ فطلب من النَّبِي ﷺ أَن يشفع إِلَيْهَا، فما كان من أجود الخلق وأكرمهم ﷺ إلا أن جاد بجاهه وذهب بنفسه الشريفة ليشفع لهذا العبد؛ فيذهب ﷺ إلى بريرة، وقال لها: «يَا بَرِيرَةُ، اتَّقِي الله؛ فَإِنَّهُ زَوْجُكِ وَأَبُو وَلَدِكِ»!! فَقَالَت - وقد استقر في نفسها التفريق بين أمره ﷺ وبين شفاعته -: يَا رَسُولَ الله أَتَأْمُرُنِي بِذَلِكَ؟ فَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا شَافِع».

فنظرت وقد قام في نفسها من بغض مُغيث وعدم قدرتها على معايشته؛ ما جعلها أن ترد مَنْ يَعظُمُ ردُّ شفاعتِه؛ فتقول: لا حاجة لي فيه يا رسول الله!!

فقال رسول الله ﷺ للعباس: «أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَبُغْضِهَا إِيَّاهُ؟!»[2].

فيرجع ﷺ وقد جاد بجاهه الشريف، وإن رُدَّ فلا يَضيره:

فالغَيثُ ليس يُبالي أينما انسَكَبت ... منه الغَمائمُ تُربًا كان أو حَجرًا

ﷺ بل كان من عِظم جوده ﷺ أنه جاد بنفسه الشريفة، ولم يَضِنَّ أو يبخلْ بها!!

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير (ج ١٢/ رقم ١٣٦٤٦)، وفي الأوسط كما في المجمع (٨/ ١٩٤)، وحسنه الألباني بشواهده في الصحيحة (٩٠٦).

(2) أخرجه أبو داود (٢٢٣١)، واللفظ له، وأخرجه النسائي (٥٤١٧)، وابن ماجه (٢٠٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٩٣٣)، وهو عند البخاري بنحوه (٥٢٨٣).

يَجُودُ بالنَّفسِ إنْ ضَنَّ البخيلُ بها   والجُودُ بالنَّفسِ أقصى غَايةِ الجُودِ

فجاد في سبيل الله بيده ولسانه وقلبه طيلة عمره وعدد أنفاسه، وكان أقرب الناس إلى عدوِّه في كل معركة، وأشدَّهم بأسًا؛ فالأبطال الشجعان تلوذ به وتتقي به!!

ومع هذا كله؛ فقد كان ﷺ يستصغر جودَه وبذلَه؛ وهذا قمة الجود وغاية البـذل والكرم؛ دَمِيَتْ إِصْبَعُه الشريفة ﷺ في بَعْضِ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ فَقَالَ مخاطبًا لها ومستصغرًا بذله وعطاءه وجوده: «**هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ**»[1]!!

فهل مثل هذا الكَرَمِ والجُودِ كَرمًا وجُودًا ؟!!

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

☼ كان ﷺ أشجعَ النَّاسِ وأثبتَهم قلبًا، لا يبلغ مبلغَه في ثبات الجأش وقوة القلب والجسم مخلوق، فهو الشجاع الفريد الذي كملت فيه صفات الشجاعة، وتمَّت فيه سجايا الإقدام وقوة البأس.

☼ ولم تكن شجاعته ﷺ في ميادين الجهاد والقتال فحسب؛ بل سبقتها شجاعة أدبية عظيمة؛ ظهرت في محاوراته ومخاطباته مع كبار قومه منذ حداثة سنِّه، وقبل أن يكرمه الله بالنبوة، كما تجلت في صدعه ﷺ بالحق من غير مواربة، لا يخشى في ذلك لومة لائم[1].

☼ وكان يُظهِرُ بُغْضَهُ الشديدَ لآلهةِ قومِه المزعومة، ويُسَفِّهُها، ويَجتنبها، دون أن يَلتفتَ لإنكارِ أحدٍ أو غضبهم لذلك[2].

☼ فلما أكرمه الله بالنبوة صدع بكلمة التوحيد، بجنان ثابت، وفي شجاعة منقطعة النظير، وسفَّه آلهتهم وأحلامهم، ولم يأبه بعداوتهم الشديدة، ولا بإيذائهم وتهديدهم له.

☼ وكما ظهرت شجاعته ﷺ الأدبية منذ حداثة سنِّه؛ فإن شجاعته القتالية أيضًا كانت حاضرة بقوة منذ نعومة أظفاره؛ حيث اشترك ﷺ مع أعمامه في حرب الفِجار؛

---

(١) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٣/١٣٣٤، ١٣٣٥) بتصرف.

(٢) انظر: دلائل النبوة لأبي نعيم (١٢٧)، وطبقات ابن سعد (١/١/١٠٠)، والسيرة النبوية لابن كثير (١/٢٤٧)، وصحيح سنن الترمذي للألباني (٢٨٦٢).

فكان يَردُّ عنهم نبلَ عدوِّهم إذا رموهم بها.

۞ وبعد بعثته ﷺ والإذن له بالقتال، سنَّ الجهاد، وضرب أروع الأمثلة البشرية على الشجاعة والثبات، وفر الكُماة والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت ثبات الجبال الرواسي لا يبرح، مقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما من شجاع سواه ﷺ إلَّا وقد أُحصِيت له فَرَّة، وحُفِظَت عنه جولة.

۞ وهو ﷺ القائل: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنَّ رِجَالاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ؛ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ**»[١].

۞ وبرز يوم بدر وقاد المعركة بنفسه، وخاض غمار الموت بروحه الشريفة.

۞ وقد شُجَّ عليه الصلاة والسلام في وجهه، وكُسِرت رَباعيتُه[٢]، وقُتِل سبعون من أصحابه، فما وهن ولا ضعف ولا خار، بل كان أمضى من السيف.

۞ لَا يخاف التهديد والوعيد، ولا ترهبه المواقف والأزمات، ولا تهزُّه الحوادث والملِمَّات، فوَّض أمره لربِّه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ورضي بحكمه، واكتفى بنصره، ووثق بوعده.

لا تَسألنَّ القَوافي عَنْ شَجاعتِه ... إنْ شئتَ فاستنطقِ القرآنَ والصُّحُفَ

۞ يصفه خادمُه أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ، فيقول: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٠٣)، ومسلم (١٧٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ[1].

ويقول ابْنُ عُمَرَ ﷺ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَنْجَدَ، وَلَا أَجْوَدَ، وَلَا أَشْجَعَ، وَلَا أَضْوَأَ وَأَوْضَأَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ[2].

فكان ﷺ يخوض المعارك بنفسه ويباشر القتال بشخصه الكريم، يعرِّض رُوحه للمنايا، ويقدِّم نفسه للموت، غير هائب ولا خائف، ولم يفرَّ من معركة قط، وما تراجع خطوة واحدة ساعة يحمي الوطيس، وتقوم الحرب على ساق، وتُشرع السيوف، وتمتشق الرماح، وتهوي الرءوس، ويدور كأس المنايا على النفوس، فهو في تلك اللحظة أقرب أصحابه من الخطر، يحتمون أحيانًا به وهو صامد مجاهد.

لا يكترث بالعدوّ ولو كثر عدده، ولا يأبه بالخصم ولو قوي بأسه، بل كان يعدل الصفوف ويشجع المقاتلين ويتقدم الكتائب.

فعن البراء ﷺ قال: «كُنَّا والله، إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ ـ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ»[3].

يكونُ أمامَ الخيلِ أولَ طاعنٍ ... ويضربُ أُخْرَاها إذا هي ولتِ

بل إن الفارس الشجاع صاحب المواقف المشهورة والوقائع المعروفة علي بن أبي طالب ﷺ، يقول عن رسول الله ﷺ: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٢) أخرجه الدارمي (٥٩)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣٩٦)، ورجال إسناده ثقات.
و(أنجد): أسرع في النجدة، وهذا دليل على عظم شجاعته ﷺ. وتقدم قريبًا.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٦)، وهو عند البخاري مختصرًا (٤٣١٧)، و(احمرَّ البأسُ وحَمِيَ): كناية عن شدة الحرب.

الْقَوْمَ؛ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ،فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ»[1].

يتقي الموتَ به أشياعُه   حِين جفَّ الريقُ وانْشَقَّ البصرُ

☼ وقد فرَّ الناس يوم حنين، وما ثبت إلا هـو ﷺ، وطَفِـق يـركض بغلتـه قِبَـلَ الكفار، وعمُّه العباس آخذٌ بلجامها، يكفُّها عن الإسراع؛ فأقبل المشركون إليه، فلما غشوه لم يفرَّ، ولم ينكص؛ بل نزل عن بغلته؛ كأنما يمكنُّهم من نفسه، وجعل يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»[2]. كأنما يتحداهم ويدُّلهم على مكانه!!

☼ وكان صدره بارزًا للسيوف والرماح، يُصرع الأبطال بين يديه، ويُذبح الكماة أمام ناظريه، وهو باسم المُحيا، طلق الوجه، ساكن النفس.

☼ إنها شجاعة لم تعرف لها البشرية نظيرًا؛ ولقـد حُـقَّ لـشجاعة الـشجعان أن تتواضع لشجاعته ﷺ إكبارًا لها وإجلالاً!!

☼ وكان أول من يهبُّ عند سماع المنادي، ولقـد فَـزِعَ أهـلُ المدينـة ذاتَ ليلـةٍ، فانطلق أناسٌ قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسولُ الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصَّوْتِ، وَقَدْ تبيَّنَ الْخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ؛ ما عليه سَرْج، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وهوَ يقول: «لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا»[3].

فيا لها من شجاعة!! إذ هبَّ إلى موطن الخطر وحـدَه، قبـل أن يتحـرك النـاس،

---

(1) أخرجه أحمد (١:٢٦٩)، وقال الأرناءوط: إسناده صحيح.

(2) أخرجه البخاري (٢٩٣٠)، ومسلم (١٧٧٦).

(3) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، و(عُـرْيٍ): لـيس عليها سَرْج، و(تُرَاعُوا): الروع؛ الخوف والفزع.

وهذا من أصعب الأشياء، حتى على نفوس الشجعان.

فإنْ طاعنوه كانَ أولَ طاعنٍ   وإن نَازلوه كانَ أولَ نازلِ

☼وتكالبت عليه الأحزابُ يومَ الخندق من كلِّ مكان، وضاق الأمرُ وحلَّ الكربُ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وزُلزِل المؤمنون زلزالاً شديدًا، فقام ﷺ يصلي ويدعو ويستغيث مولاه، حتى نصره ربُّه، وردَّ كيد عدوِّه، وأخزى خصومَه، وأرسل عليهم ريحًا وجنودًا، وباءوا بالخسران والهوان.

☼ وما غزواته الكثيرة التي غزاها ﷺ وسطّرتها كتب السير والمغازي والأحاديث الصحيحة التي تحدثت عن بسالته وشجاعته في المعارك التي خاضها ضد الكفار والمشركين واليهود ـ والتي لم نذكر منها إلا النذر اليسير ـ ما هي إلا دليل صدق لا مرية فيه، يؤكد ويدلل على خُلُق الشجاعة والبسالة الذي كان يتحلى به ويتصف به ﷺ.

☼ ولم تأخذه ﷺ في الله عزَّ وجلَّ، لومةُ لائمٍ؛ فكان لا يهاب إلا الله عزَّ وجلَّ، وكان يجاهد بنفسه وماله لإعلاء كلمة الله تعالى؛ لتكون هي العليا، ولكي يظهر الحق ويزهق الباطل ويسحقه؛ فكان له ﷺ ما أراد، ونصره الله عزَّ وجلَّ، وأعلى قدره وشأنه، وأظهر دينه على الأديان كلِّها.

☼ فإذا ذُكِرت الشجاعةُ ذُكِر رسول الله ﷺ، وإذا ذُكِرت البطولة والبسالة ذُكِر رسول الله ﷺ.

☼ وكانت قوته ﷺ الجسدية عظيمة، تبلغ قوة ثلاثين رجلاً؛ فعن أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ. قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسٍ: أَوَكَانَ يُطِيقُهُ؟! قَالَ: كُنَّا

نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلاثِينَ[١].

وهذا رُكَانَة الذي ما صرعه أحدٌ على وجهِ الأَرْضِ، قَبْلَ رسـولِ الله ﷺ، كـما يقـول هو عن نفسه- خلا يومًا برسول الله ﷺ في بعض شِعاب مكة؛ فقال له رسـول الله ﷺ: «**يَا رُكَانَةُ، ألا تَتّقِي الله، وَتَقْبَلُ مَا أَدْعُوك إِلَيْهِ؟**»، قال: «إِنّي لَـوْ أَعْلَـمُ أَنّ الّـذِي تَقُـولُ حَقٌّ لاتّبَعْتُك»، فقال لـه رسـول الله ﷺ: «**أَفَرَأَيْـتَ إِنْ صَرَعْتُـك، أَتَعْلَـمُ أَنَّ مَـا أَقُـولُ حَقٌّ؟**» قال: «نعم». قال: «**فَقُمْ حَتّى أُصَارِعَك**».

قال: فَقَامَ إِلَيْهِ رُكَانَةُ يُصَارِعُهُ، فَلَمَّا بَطَشَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ أَضْجَعَهُ وَهُوَ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «عُدْ يَا مُحَمّدُ». فَعَادَ فَصَرَعَهُ. فَقَالَ: «يَا مُحَمّدُ، والله، إنَّ هَذَا لَلْعَجَبُ، أَتَصْرَعُنِي؟!!»[٢].

فصرعه ﷺ ثلاث مرات، كل مرة على مائة من الغنم، فلما كان في الثالثة قال: «يا محمد، ما وضعَ ظهري على الأرضِ أحدٌ قبْلَك، وما كانَ أحدٌ أبغض إليَّ منك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله»، فقام عنه رسول الله ﷺ وردَّ عليه غنمه[٣].

☼ ومـع هـذه الشجاعة البالغة، وتلك القـوة العظيمة التي كان يتحلى بها ﷺ؛ إلا أنها لم تكن أبدًا شجاعة تهور، ولا قوة بطش؛ وإنما كانت شجاعة مضبوطة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨)، ومسلم (٣٠٩).

(٢) والراوي هو: إسحاق بن يسار، والقصة في كتب السيرة، راجع السيرة النبويـة لابـن كثـير (٢/ ٨٢)، وحديث مـصارعة ركانـة في سـنن أبي داود (٣٥٥٦)، وحـسنه الألبـاني في إرواء الغليل (١٥٠٣).

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٨٣)، وراجع صحيح السيرة للألباني، ص٢١٧.

بالعقل، وقوة مشـوبة بالرحمة؛ فلم يستعملها قطُّ إلا في مواطـن الوغى في الجهاد في سبيل إعـلاء كلمة الله.

☼ فلم يَنتقِمْ ﷺ لنفسِه قطُّ، ولم يضرب بيده إلا في سبيل الله؛ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: «... وما انتقم ﷺ لنفسه قطُّ، إلا أن تُنْتَهَك حرمةُ الله؛ فينتقم لله تعالى»(١).

☼ وقالت رضي الله عنها: «ما ضربَ رسولُ الله ﷺ خادمًا له ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قطُّ، إلا أن يجاهدَ في سبيل الله»(٢).

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) واللفظ له، ومسلم (٢٣٢٨).

(٢) نفس الحديث السابق، وهذا لفظ مسلم .



ضحكه ومزاحه ﷺ

☼ كان ﷺ بَسَّامًا مع أهله وأصحابه؛ يُمازح زوجاتـه، ويُلاطفهـنَّ، ويُؤنسهنَّ، ويُحادثهنَّ حديث الودِّ والحبِّ والحنان والعطف؛ وكانت تعلو مُحيَّاه الطاهرَ البسمةُ المشرقةُ الموحيةُ، فإذا قابل بها النَّاسَ أسرَ قلوبَهم أسرًا، فمالت نفوسهم بالكلية إليه، وتهافتت أرواحهم عليه.

☼ وكان يمزح ولا يقول إلا حقًا، فيكون مزحه على أرواح أصحابه ألطف من يد الوالد الحاني على رأس ابنه الوديع، يمازحهم فتنشط أرواحهم، وتنشرح صدورهم، وتنطلق أسارير وجوههم.

☼ يقول جَرِير بْن عَبْدِ الله الْبَجَلِيُّ ﷺ: ما رَآنِي رسول الله ﷺ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي[1].

☼ وكان ﷺ في ضحكه ومزاحه ودعابته وسَطًا بين من جفَّ خلُقه، ويَبِسَ طبعُه، وتجهَّم مُحيَّاه، وعَبَسَ وجهُهُ، وبين من أكثر من الضحك، واستهتر في المزاح، وأدمن الدعابة والخِفَّة.

☼ فكان من هديه ﷺ أن يمازح بعض أصحابه؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَجُلاً اسْتَحْمَلَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ ﷺ: **«إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ»** فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلا النُّوقُ؟»**[2]. أي إن الجمل أصلاً ولد ناقة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٩١)، وأبو داود (٤٩٩٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٠٧٦).

☼ وسألته امرأة عجوزٌ، قالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «**يا أمَّ فُلانٍ، إنَّ الجنَّةَ لا تَدْخُلُها عَجُوْزٌ**»، فولَّت تَبْكِي، فقال: «**أخْبِرُوها أنَّها لا تَدْخُلُها وهي عَجُوزٌ**»، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ – ٣٧][1].

☼ وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قالوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قال: «**إِنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا**»[2].

☼ ومن مزاحه ﷺ؛ ما رواه أنس بن مالك ﷺ، قال: إن النبي ﷺ قال له: «**يَا ذَا الأُذُنَيْنِ**»[3]. يَعْنِي مَازَحَهُ.

☼ ومن ذلك؛ ما جاء عن صُهَيْبٍ ﷺ، قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ خُبْزٌ وَتَمْرٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ادْنُ فَكُلْ**» فَأَخَذْتُ آكُلُ مِنَ التَّمْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَأْكُلُ تَمْرًا وَبِكَ رَمَدٌ؟!**» ـ وكان صهيب حسن البديهة ـ قَالَ: فَقُلْتُ: إِنِّي أَمْضُغُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[4].

☼ ومن ذلك أيضًا؛ ما رواه أنس بن مالك ﷺ، فيقول: إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٠)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل (٢٠٥). وانظر: الصحيحة (٢٩٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥٨٠٦)، والترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٦٥)، و(تداعبنا): تمازحنا.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٠٢)، والترمذي (١٩٩٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٠٧٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٤٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٧٦).

الْبَادِيَةِ، كَانَ اسْمُهُ زَاهِرَ بْنَ حَرَامٍ... قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا، وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَهُوَ لا يُبْصِرُهُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي، مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ، فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لا يَأْلُو مَا أَلْزَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِذًا وَالله، تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَكِنْ عِنْدَ الله لَسْتَ بِكَاسِدٍ**»، أَوْ قَالَ: «**لَكِنْ عِنْدَ الله، أَنْتَ غَالٍ**»(1).

☼ ومع تبسُّط الرسول ﷺ مع أهله وقومه؛ فإن لضحكه حدًا فلا تراه إلا مبتسمًا، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ»(2).

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

---

(1) أخرجه أحمد (١٢٢٣٧)، والترمذي في الشمائل (٢٣٩)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٠٤).

(2) أخرجه البخاري (٦٠٩٢)، ومسلم (٨٩٩)، و(مُسْتَجْمِعًا): مبالغًا في الضحك، منخرطًا فيه، و(لَهَوَاتِهِ): جمع لهاة: وهي اللحمة التي في أقصى سقف الفم.



أخلاقه ﷺ مع أهله

☼ كان ﷺ خير الناس؛ خيرَهم لأمَّتِه، وخيرَهم لأهله، وكيف لا يكون كذلك، وهو القائل ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[1]؟.

☼ ولقد تحققت هذه الخيرية لأهله في أسمى صورها على الإطلاق؛ بكل ما تعنيه من كمال خلقي في السلوك، والتعامل الأدبي؛ من الإكرام، والاحترام، وحسن المعاملة؛ من محبة وملاعبة، ومداعبة، وملاطفة، ومضاحكة، وعدل، ورحمة، ووفاء، وغير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية في جميع أحوالها وأيامها؛ فكان ﷺ معهنَّ جميلَ العِشْرة، دائمَ البِشْر.

☼ وقد بلغ احترامه وتقديره ﷺ لزوجاته رضي الله عنهن، مبلغًا عظيمًا، لم تعرفه العرب ولا العجم، حتى إنه ﷺ يضع ركبته الشريفة لتضع عليها زوجه صفية رضي الله عنها رجلها؛ حتى تركب على بعيرها[2].

☼ ولم يكن ذلك الحبُّ والوفاء والتقدير والاحترام والإحسان لأزواجه ﷺ عارضًا قاصرًا حال الحياة فقط؛ بل هو راسخٌ ممتدٌ بعد الموتِ أيضًا؛ فكان يذبحُ الشَّاةَ ثم يهديها إلى صديقات خديجة رضي الله عنها، وذلك بعد مماتها[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، من حديث عائشة، رضي الله عنها، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٥)، ومسلم (١٣٦٥). وفي رواية صححها الألباني في جلباب المرأة المسلمة ص١٠٦ زيادة: «... فأبت، ووضعت ركبتها على فخذه ﷺ».

(٣) البخاري (٣٨١٨)، ومسلم (٢٤٣٥)، وتقدم في ذكر وفاته ﷺ بالعهد ورعايته له.

☼ وكان مع أهله أحلمَ الناس، ويعفو عنهم فيما يصدرُ منهم، ويرأف بهم، وكان يصبر على ما يكون بين أزواجه من الغيرة، التي تكون بين النساء، ويطيب خاطر من أُسِيء إليه، وينصحُ الآخر، ويُذَكِّرُه بالله.

☼ فعَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ. فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: **«مَا يُبْكِيكِ؟»** فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟»** ثُمَّ قَالَ: **«اتَّقِي الله، يَا حَفْصَةُ»**[1].

☼ وكان ﷺ يدخل عليهم باسمًا، يملأ قلوبهم وبيوتهم أُنْسًا وسعادة.

☼ وكان من كريم أخلاقه ﷺ في تعامله مع أهله وزوجاته، أنه كان يُحسن إليهم، ويتلطَّف إليهم، ويتودَّد إليهم، فكان يُمازِحُ أهلَه ويلاطفُهم ويداعبُهم.

☼ وكان من شأنه ﷺ أن يرَخِّم اسم عائشة رضي الله عنها؛ كأن يقول لها: **«يَا عَائِشَ»**[2]، ويقول لها: **«يَا حُمَيْرَاءُ»**[3]، ويُكرمها؛ بأن يناديها باسم أبيها؛ بأن يقول لها: **«يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ»**[4]، وما ذلك إلا توددًا وتقربًا وتلطفًا إليها، واحترامًا وتقديرًا

---

(١) أخرجه أحمد (١١٩٨٤)، والترمذي (٣٨٩٤)، وابن حبان في صحيحه (٧٢١١)، وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٠٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٨).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٧/ ٨٩٥١)، والطحاوي في مُشْكِل الآثار (١/ ١١٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٧٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٧٣٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢).

لأهلها.

☼ وكان ﷺ يعين أهله، ويساعدهم في أمورهم، ويكون في حاجتهم، وكانت عائشة تغتسل معه ﷺ من إناءٍ واحد، فيقول لها: «دَعِي لِي»، وتقول له: دَعْ لِي[1].

☼ وكان يُسَرِّبُ إلى عائشةَ بناتِ الأنصار؛ يلعبن معها.

وتذكر عائشة رضي الله عنها، ذلك الخلقَ الرفيعَ والحرصَ البالغَ منه ﷺ، على تسليتها وإسعادها؛ فتقول: «كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي؛فكَانَ رَسُولُ الله ﷺ، إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ، فَيَلْعَبْنَ مَعِي»[2].

☼ وكان ﷺ رجُلاً سَهْلاً إِذَا هَوِيَتِ الشَّيءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ[3]؛ أي أجابها إليه؛ إذا كان لا محذورَ فيه، ولَا نقص فيه في الدين ـ مثل طلبها الاعتمار وغيره.

☼ وكان إذا شربت من الإناء أخذه، فوضع فمه في موضع فمها، وشرب.

☼ فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: «كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ، فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ، وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ»[4].

---

(١) أخرجه النسائي (٢٣٩) واللفظ له، ومسلم (٣٢١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٢٤٤٠)، و(يَتَقَمَّعْنَ): يتغيبن منه ويدخلن وراء الستر، وعند مسلم: (يَنْقَمِعْنَ): يتغيبن و يَفْرِرْنَ؛ حياء وهيبة منه ﷺ، و(يُسَرِّبُهُنَّ): يُرسلهن.

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٣)، من حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠) بنحوه، من حديث عائشة رضي الله عنها، و(تَعَرَّق): تَعَرَّق العظمَ: أي تَتَبَّع ما عليه من اللَّحْم، و(العَرْق): العَظْم الذي أُخِذ أكثرُ ما عليه من اللحم، وبَقِيَ عليه شيءٌ يَسِير

=

☼وكان يتكئ في حَجْرِها، ويقرأ القرآن ورأسه في حَجرِها، وربما كانت حائضًا[1].

☼وكان يأمرها وهي حائضٌ؛ فَتَتَّزِرُ، ثم يُباشِرُها[2]، وكَانَ يُقَبِّلُهَا وَهُوَ صَائِمٌ[3].

☼ وكان من لطفه وحسن خُلُقه مع أهله أنه يمكِّنها من اللَّعِب[4].

☼وسُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺيصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة»[5].

☼وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قالت: «كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ »[6].

☼ وعَنْ عَائِشَةَ رَضي الله عَنها، قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺفِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ

=

وجمعه عُرَاق.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٧)، ومسلم (٣٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١)، ومسلم (٢٩٣). و(فَتَتَّزِرُ): تستر سرَّتها فما تحتها بإزار. و(يباشرها): المباشرة: المعاشرة فيما دون الجماع.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٢٨)، ومسلم (١١٠٦).

(٤) كما تقدم من حديث لعبها بالبنات، وتسريب النبي ﷺصواحبها ليلعبن معها، أخرجه البخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٢٤٤٠).

(٥) أخرجه البخاري (٦٧٦).

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٣٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٥٦٧٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأصله عند البخاري (٦٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٣٧).

وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**» فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ.

فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**» فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي؛ فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»[1].

وصدق الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧٤٥)، وأبو داود (٢٥٧٨) مختصرًا، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣١).

أخلاقه ﷺ مع الأطفال والصبيان

☼عن أنس ﷺ، قال: «كَانَ ﷺيَمُرُّ بِالصِّبْيَانِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ»[1].

☼وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺيُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ فَيَدْعُو لَهُمْ؛ فَأُتِيَ بِصَبِيٍّ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَغْسِلْهُ»[2].

☼وكان ﷺيسمع بكاء الصبي؛ فيسرع في الصلاة؛ مخافة أن تُفتَتَن أمه[3]. أي تشتغل به عن الصلاة[4].

☼ومواقفه ﷺ مع الأطفال وتألفه لهم وعطفه عليهم، كثيرة مشهورة؛ ومن ذلك تركه ﷺالحسن أو الحسين، يمتطي ظهره الشريف، وهو ساجد في الصلاة فظل ساجدًا حتى نزل الصبي وحده.

فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺالصَّلَاةَ، قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي؛ فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥٥)، ومسلم (٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٨)، ومسلم (٤٧٠)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٤) وتقدم كثير من ذلك في مبحث رحمته ﷺ.

(٥) أخرجه النسائي (١١٤١)، وأحمد (١٥٦٠٣)، من حديث شداد بن الهاد ﷺ، وقد تقدَّم في مبحث رحمته ﷺ. وهو حديث صحيح.

۞ وكَانَ يَأْخُذُ أسامة بن زيد ﷺ، فَيُقْعِدُه عَلَى فَخِذِهِ، وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا ثُمَّ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا**»[1].

۞ وعن أنس ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة، وهو يقول: «**يَا زُوَيْنِبُ، يَا زُوَيْنِبُ**» مرارًا[2].

۞ وكان ﷺ يحمل ابنة ابنته وهو يصلي بالناس؛ إذا قام حملها، وإذا سجد وضعها.

۞ وَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ، يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْمِنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا، فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ:** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] **نَظَرْت إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي فَرَفَعْتُهُمَا**»[3].

۞ وسنَّ الرسولُ ﷺ رعاية الطفل من الناحية الوجدانيَّة؛ وذلك بالإحسان إليه ورحمته وملاعبته وإدخال السرور عليه.

۞ وكان ﷺ شديدَ العناية بالصغار، وبمراعاة مشاعرهم ونفسيَّاتهم، ويتباسط معهم، ويداعبهم، ويؤانسهم، ولم يُذكر عنه ﷺ مطلقًا أنه عبَس أو تجهَّم في وجه أحدهم، بل كان ما إِنْ يراهم إلَّا ويبشُّ ويهشُّ لهم، وكانت سيرته ﷺ تطبيقًا عمليًّا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٣) من حديث أسامة بن زيد ﷺ. وتقدم في مبحث رحمته ﷺ.

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٤١).

(٣) أخرجه أبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، والنسائي (١٤١٣)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، من حديث أَبِي بُرَيْدَةَ ﷺ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٦٠٠).

لذلك.

☼ فعَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ ﷺ، قال: خَرجنَا مَع النَّبِيِّ ﷺ، ودُعِينَا إلى طَعام؛ فَإذا حُسينٌ يَلعبُ فِي الطَّريق، فَأسرعَ النبيُّ ﷺ أمامَ القَومِ، ثُم بَسطَ يَديهِ، فَجَعلَ الغُلامُ يَفر هَهُنا وهَهُنا، ويُضَاحِكُه النَبيُّ ﷺ، حَتى أَخذهُ، فَجعلَ إِحدى يَديهِ فِي ذَقْنِهِ والأُخرَى فِي رَأسهِ، ثُم أعتَنَقَه، ثُم قَال النبيُّ ﷺ: «**حُسينٌ مِني وَأَنَا مِنهُ، أَحبَّ اللهُ مَن أَحبَّه، الحَسنَ والحُسينَ سبطان مِن الأسباط**»[1].

☼ وعَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ، رضي الله عنها، قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مَعَ أَبِي، وَعَلَيَّ قَمِيصٌ أَصْفَرُ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سَنَاهْ سَنَاهْ**» - وَهِيَ بِالْحَبَشِيَّةِ: حَسَنَةٌ- قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَزَبَرَنِي أَبِي. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**دَعْهَا**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي**»[2].

☼ وها هو ذا يواسي أبا عمير في طائره، فيقول له: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**».

فعن أنس ﷺ، قال: كان النبي ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْنَا، وَكَانَ لِي أَخٌ صَغِيرٌ، يكنى: أَبَا عُمَيْرٍ، وَكَانَ لَهُ نُغَيْرٌ يَلْعَبُ بِهِ، فَمَاتَ نُغَرُهُ الَّذِي كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٦٤) واللفظ له، وأخرجه أيضًا: أحمد (١٧١١١)، والترمذي (٣٧٧٥)، وابن ماجه (١٤٤)، باختصار ذكر الحسن، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٢٢٧). و(الأسباط): جمع سبط، وهو ولد الابن والابنة. والمقصود: أنهما أمة من الأمم في الخير، والأسباط في أولاد إبراهيم عليه السلام بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧١). و(زَبَرَنِي): نهرني وزجرني. و(أَبْلِي وَأَخْلِقِي): المراد الدعاء لها بطول الحياة حتى يبلى ثوبها ويقطع. وإنما خاطبها بلسان الحبشة؛ لأنها ولدت في أرض الحبشة، وقدمت منها وهي بنت صغيرة.

يَوْمٍ فَرَآهُ حَزِينًا، فَقَالَ لَهُ: «مَا شَأْنُ أَبِي عُمَيْرٍ حَزِينًا؟» فَقَالُوا: مَاتَ نُغَرُهُ الَّذِي كَانَ يَلْعَبُ بِهِ يَا رَسُولَ الله، فقال: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»[1].

☼ فكان ﷺ أرحمَ النَّاس بالأطفال والصبيان، مهتمًا بشئونهم، حريصًا على ما يصلحهم؛ يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ»[2].

وصدق الله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٥٠)، ومسلم (٢١٥٠). و(النُّغَير): تصغير (النُّغَر) وهو طائر يشبه العصفور، أحمر المنقار.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

☼ هل عَلِمَ أحدٌ في التاريخِ كلِّه خادِمًا يُثني على سيِّدِه، مثل ما قال خَادِمُ رسولِ الله ﷺ ؟!

☼ يقول أنس ﷺ كلامًا ما أعجبه! وشهادة ما أصدقها! وثناء ما أعطره! عن حال رسول الله ﷺ معه؛ قال: «خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَالله مَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا!!»[1].

☼ عشر سنوات كاملة؛ ليست أيامًا أو شهورًا؛ إنه عمرٌ طويلٌ؛ فيه الفرح والتَّرَحُ، والحزن والغضب، وتقلبات النفس واضطرابها، وفقرها وغناها، ومع هذا فلم ينهرْه ولم يأمرْه - بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام- بل ويكافئه ويطيب خاطر خادمه، ويلبي حاجته وحاجة أهله، ويدعو لهم.

يقول أنس ﷺ: قالت أمي: يا رسول الله، خادمك ادع الله له، قال: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**»[2].

☼ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله»[3].

☼ وعن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا، قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ، إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٤)، ومسلم (٢٤٨٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٨)، واللفظ له.

أَخَذَ أَيْسَرَ هُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا للهِ»[1].

☼ وكان ﷺ يهتمُّ برعاية خَدَمِه، ويتفقد أحوالهم وأمورهم الخاصة، ويعينهم على أمور معاشهم؛ ويَعودُهم إذا مَرضوا، ويبتدئهم بالسؤال عن حاجتهم، ولم يكن هذا الأمر حديثًا عابرًا منه ﷺ بل كان يشغلُ بالَه ويتابعُه ويسألُ عنه؛ ولا ينتظر حتى يسألوه هم؛ فعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ ﷺ، خادم رسول الله ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَلْنِي أُعْطِكَ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْظِرْنِي؛ أَنْظُرْ فِي أَمْرِي. قَالَ: «**فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ**».

قَالَ: فَنَظَرْتُ، فَقُلْتُ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا يَنْقَطِعُ، فَلَا أَرَى شَيْئًا خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ آخُذُهُ لِنَفْسِي لِآخِرَتِي؛ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا حَاجَتُكَ؟**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْفَعْ لِي إِلَى رَبِّكَ، عَزَّ وَجَلَّ؛ فَلْيُعْتِقْنِي مِنَ النَّارِ.

فَقَالَ: «**مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟**». فَقُلْتُ: لَا واللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنِّي نَظَرْتُ فِي أَمْرِي؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ مِنْ أَهْلِهَا؛ فَأَحْبَبْتُ أَنْ آخُذَ لِآخِرَتِي. قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[2].

☼ وقد امتدَّت عنايته ﷺ بخدمه لتشمل غير المؤمنين به، وذلك كما فعل مع

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) واللفظ له، ومسلم (٢٣٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٦١٤٢)، والطبراني في مسند الشاميين مختصرًا (١٣٥٣)، وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند (٢٧/ ١١٤): حديث حسن بهذا السياق، دون قوله: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**» فصحيح لغيره، وحسن الألباني إسناده في الإرواء (٢/ ١٠٩).

الغلام اليهودي الذي كان يَخْدُمُه؛ فعَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ؛ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

☼ كما كان ﷺ يبذل نفسَه الشريفةَ ووقته؛ لأجلِ قضاءِ حاجاتِ الضعفاءِ والمساكينِ، رغم اشتغاله بالأمور العِظام والمهام الجِسام؛ فعن عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَأْنَفُ وَلَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ؛ فَيَقْضِيَ لَهُمَا حَاجَتَهُمَا»[2].

☼ وعن أنس بن مالك ﷺ، أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فقال رسول الله ﷺ: «انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ» فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ؛ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[3].

وصدق الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

* * *

هذا غيضٌ من فيضٍ، وقطرةٌ من محيطٍ؛ من خصال وأخلاق أعظم إنسان عرفته

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

(٢) أخرجه النسائي (١٤١٤)، والدارمي (٧٤) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٣٤١).(ويستَنْكِفُ): يستكبر.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

البشرية ﷺ جمعتها على عجلٍ؛ مساهمةً متواضعة، وكلماتٍ مختصرة؛ لعلنا ندرك جانبًا يسيرًا من جوانب العظمة، في حياة سيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ.

* * *

كيف ننصر هذا النبي الكريم ﷺ؟

☼سؤال ينبغي أن يسألَه كلُّ محبٍّ صادقٍ في محبته لهذا النبيِّ الكريمِ ﷺ لنفسه، وهو: كيف أنصرُ هذا النبيَّ الكريمَ ﷺ؟ كيف أذبُّ عن عرضِه الشريفِ ﷺ؟

☼وكيف أردُّ على حملاتِ التشويهِ الظالمة، والإساءة الغاشمة، التي يتعرَّض لها شخصُه الكريمُ ﷺ في الشرق والغرب؟

☼وماذا يجبُ عليَّ وفاء بحقه وتأكيدًا لمحبته ﷺ؟

☼وقبل أن أجيبك على هذا السؤال؛ لتسأل نفسَك: من اتصف بكل هذه الصفات الرائعة العظيمة التي بلغت الكمال البشري - أليس جديرًا بأن يُحبَّ؟!!

فكيف إذا علمتَ أنه يحبُّك؟!! بل كيف إذا علمتَ أنه هو يشتاق لك ويتمنى رؤيتَك[1]؟!! بل ويبكي من أجلك خوفًا عليك وشفقةً بك[2]؟!

لا أشكُّ لحظةً أنك ستقول من كل قلبِك وكيانِك: بلى، أحبه ﷺ

عندها سأقول لك: إن مجرد محبته ﷺ لا تكفي وحدها!! بل لابد أن تحقق حقيقة قول نبيك وحبيبك ﷺ «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ**

---

(١) أخرج مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا». قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ...».

(٢) كما في حديث عمرو بن العاص عند مسلم (٢٠٢)، وفيه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلا قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى ...»، وتقدم كاملاً ص٦٩.

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1].

☼ **وهذا هو الجواب على كل الأسئلة المتقدمة: لكي ننصرَ نبيَّنا وحبيبَنا ﷺ لابدَّ أولاً أن نحقق في أنفسنا حقيقة محبته ﷺ، وأن يكون حبُّه ﷺ أعظمَ في قلوبنا من كلِّ حبٍّ؛ بل أعظمَ من محبتِنا أنفسَنا، وأن نجعلَ ذلك الحبَّ واقعًا ملموسًا مشاهَدًا لَا زعمًا.**

☼ حبًّا كذاك الحبِّ الذي ملأ قلبَ الصِّدِّيقِ ﷺ، حتى وجدَ رِيَّ ظمأ حبيبه ﷺ في جوفه حقيقة لا ادعاء ولا مبالغة؛ فرضي لذلك!!

يحكي أبو بكر ﷺ، عن رحلة الهجرة مع حبيبه من مكة إلى المدينة؛ فيقول: «مَرَرْنَا بِرَاعٍ وَقَدْ عَطِشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَحَلَبْتُ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ فِي قَدَحٍ، فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ...»[2].

يالله ما أعظم وأصدق هذا الحب! «فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ»!!

وكيف يرضى الصِّدِّيق إلا وقد ذهب العطش عن حبيبه ﷺ ؟!!

وكأَنَّ أبا بكر ﷺ، هو الذي ارتوى؛ فذهب عطشُه، والصِّدِّيق الذي جاء بالصدق وصدَّق به، لا يبالغ في حديثه، ولا يقول إلا ما وجده حقيقة!!

☼ **وهو نفسُه الحبُّ الذي ملأ كيان هذا الصحابي كلَّه؛ حتى لا يكاد يصبرُ على فراق حبيبه ﷺ، فيرجع لينظر إلى وجهه الشريف ﷺ؛** بل إن هذا الشوق يتجاوز حدود الزمان والمكان؛ ليمتد إلى يوم القيامة، حتى وهو في الجنة!! فيقول له: يا رسول الله، والله إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وإنك لأحبُّ إليَّ من أهلي، وأحبُّ إليَّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٠٧)، ومسلم (٢٠٠٩). و(الكُثْبَةُ): الجُرْعَة في الإناء. والمقصود: كمية قليلة.

من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك؛ فما أصبر حتى آتيك؛ فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك؛ عرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنةَ رُفعتَ مع النبيين، وإني إذا دخلتُ الجنةَ خشيتُ ألَّا أراك...»[1]!!

☼وهو نفسُه الحبُّ الذي ملأ قلب بلال ﷺ، حتى جعله يستعذِبُ الموتَ فرحًا مستبشرًا لقدومه؛ لأنه سيمكنه من رؤية حبيبه ﷺ!!

تقول امرأته عند احتضاره: وا ويلاه! ويقول هو: وا فرحاه! غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه[2]!!

☼وهو الحبُّ الذي جعل زَيْدَ بْنَ الدَّثِنَة ﷺ، يؤثر الموت راضيًا مطمئنًا، على أن تُصيبَ حبيبَه ﷺ شوكةٌ تؤذيه وهو في مجلسه!!

يقول لَهُ أَبُو سُفْيَانَ ـ وقد أَخْرَجُوهُ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ ـ فيسأله حِينَ قَدِمَ لِيُقْتَلَ: أَنْشُدُكَ الله، يَا زَيْدُ، أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الآنَ فِي مَكَانِكَ، نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ: والله، مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ، وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي. قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٥٣)، والأوسط (١/ ١٥٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٣): ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة. وقال الحافظ ابن حجر في العجاب (٢/ ٩١٤): رجاله موثقون. وحسنه سليم الهلالي ومحمد آل نصر في الاستيعاب في بيان الأسباب (١/ ٤٢٩، ٤٣٠)، وبقية الحديث: «فلم يَردَّ عليه النبيُّ ﷺ شيئًا حتى نزل جبريلُ عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النساء: ٦٩]».

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥٩).

أَحَدًا؛ كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا!![1].

☼ وهو نفسُه الحبُّ الذي ملأ قلبَ سعدِ بنِ الرَّبيع؛ فجعل نُصرةَ حبيبِه ﷺ وفداءه بالمُهَج والأرواح، هي آخر وصية يوصي بها قومه الأنصار، وهو يجودُ بنفسه شهيدًا ﷺ!!

يقول زيد بن ثابت ﷺ: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع.

قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وبه سبعون ضربة؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد! إنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ أَفِي الأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الأَمْوَاتِ؟

قَالَ: أَنَا فِي الأَمْوَاتِ، فَأَبْلِغْ رَسُولَ الله ﷺ عَنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: إنَّ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَك: جَزَاكَ الله عَنَّا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَأَبْلِغْ قَوْمَك عَنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُمْ: إنَّ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَكُمْ: إنَّهُ لا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ الله، إنْ خُلِصَ إلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ وَفيكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ، وفَاضَتْ نَفسُه من وَقتِه[2].

☼ فأيُّ عذرٍ تعتذر به اليوم أمةُ المليار، وقد خُلِص إلى رسولها ﷺ واجترأ عليه الأراذل والسفهاء؟!!

☼ إن الحبَّ الحقيقي لرسولنا ﷺ إذا لامس شغاف قلوبنا حقًّا وصدقًا، وأصبح

---

(١) أخرجه ابن إسحاق عن شيخه عاصم بن عمرو مصرحًا بالتحديث عنه؛ سيرة ابن هشام (٣/ ١٧٢)، والمغازي للواقدي (٢/ ٣٦٢). وانظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٠١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وذكره ابن هشام في السيرة (٢/ ٩٤)، وابن عبد البرِّ في الاستيعاب (٤/ ١٤٥). وقال العمري في السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٦) هامش (٣): من رواية ابن إسحاق، بإسناد رجاله ثقات.

حقيقة لادعوية لابدَّ وحتمًا أن يصبحَ واقعًا ملموسًا نعيشه، ونلمس آثاره في أخلاقنا، وفي سلوكنا، وفي اهتماماتنا، وفي حياتنا كلِّها.

☼ إن هذا الحبَّ يدفعنا أولَ ما يدفعُنا إلى نصرة دين حبيبنا ﷺ، وأن نبذل لأجل الدعوة إليه، والحفاظ عليه، مُهَجَنا وأرواحَنا، وشعارُنا هو كلمةُ أعظم محبٍّ وأصدق محبٍّ ﷺ، يوم تعرض دين محبوبه ﷺ للخطر؛ فصاح صيحتَه الخالدة: إنَّهُ قد انقطع الوحيُ، وتَمَّ الدِّينُ، أَيَنْقُصُ وأنا حَيٌّ؟!‏[1].

☼ وما أفقه إمام دار الهجرة، وفقيه الإسلام رحمه الله، وهو يقول: «مَنِ ابتَدَعَ في الإسلام بدعةً يراها حسنة؛ فقد زعم أنَّ محمدًا ﷺ خانَ الرّسالة، لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذٍ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا»[2].

☼ فليت شعري كيف يدعي محبتَه ﷺ أقوامٌ؛ ثم هم أولُ مِعولِ هدمٍ لشريعته ومحاربة سنته ﷺ؛ بالابتداع في دينه بدعوى محبته، متجاهلين تحذيرَه الشديدَ ﷺ: «إياكم ومُحدثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ مُحدثَةٍ بدْعةٌ، وكلَّ بدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[3]؟!!

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ (٦٤٢٦).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩). وقال في تعريف البدعة: «والبدعة شرعًا :طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعيّة، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى»؛ فما كان من الاختراعات في أمور الدنيا فلايعتبر من البدعة المذمومة شرعًا .قال ابن رجب: «وأمّا ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنّما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية». جامع العلوم والحكم (٢/ ١٢٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، من حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٣٥).

☼ **فالمحبُّ الصادقُ لرسولِه ﷺ الذي يريـدُ نصرتَه بحقٍ؛ حريصٌ على اتباعه ﷺ** في كل شئونه، والاحتكام إلى شريعته الطاهرة، والرضا بها، والتسليم التام لها، وتعظيم سنته الشريفة.

☼ **والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ يطيعُه في نهيه عن الغلو فيه،** ولا يُنزله فوقَ منزلته، التي أنزله الله إياها، ورضيها له ربُّه عزَّ وجلَّ؛ وهي أنه عبدالله ورسوله ﷺ.

☼ **والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ حريصٌ أشدَّ الحرصِ على أن يتعرف سنَّةَ حبيبه ﷺ،** وعلى سيرته الشريفة، وأن يُعَلِّمَها أولادَه وأهلَه وزملاءه في العمل.

والمحبُّ الصـادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ، يحرص أشدَّ الحرصِ على التأسي بأخلاقه ﷺ الكريمة وخصاله الشريفة، ليعطي صورة مشرفة لدينه ودعوته ﷺ، وليَنعَمَ بالقرب منه ﷺ، ويحظى بجواره يوم القيامة، تلك المنزلة العالية التي لا تُنال إلا بحسن الخلق، كما أخبر ﷺ بذلك؛ فقال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنكمْ أَخْلَاقًا**»(١).

☼ **والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ لا تفارقُ محبتُه ﷺ قلبَه طَرفةَ عينٍ،** فهو دائمًا يستحضر عظيمَ فضلِه وإحسانِه ﷺ عليه، وعلى كلِّ واحد منا؛ فقد بلغنا الرسالة أتم البلاغ، وأدى الأمانة أحسن الأداء، ونصح الأمة أعظم النصح وأصدقه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩١).

۞ والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ يُحبُّ أهلَ بيتِهِ الكرامَ الأخيارَ الأبرارَ؛ من أزواجِه وذريَّتِه وقرابتِه الأطهارِ، ويُوَالِيهم ويُجِلُّهُم، ويُبغِضُ كلَّ مَنْ يُبغِضُهم، أو يَنتَقِصُ من قدْرِهم.

ويا لها من كلمة محبٍّ ما أصدقه وأصدقها: «والذي نَفْسي بيده، لَقَرابةُ رسولِ الله ﷺ أَحَبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي»[1]!!

۞ والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ، يحبُّ أصحابَه الكرامَ ﷺ أجْمَعِين، ويُوَقِّرُهم، ويَقْتَدِي بِهم، ويَهتَدِي بهديِهم، ولا يَذْكُرُهم إلَّا بالجميلِ، ويكفُّ عمَّا شَجَرَ بينهم، ويَدْعُو ويَسْتَغْفِرُ لَهم، ويَعتقِدُ فضلَهم على مَنْ جاء بعدَهم، في العلم، والعمل، والمنزلة، ويُبغِضُ كلَّ مَنْ يُبغِضُهم، أو يَنتَقِصُ منهم.

أيا ساكني أكنافَ طيبةَ كُلُّكُمْ إلى القلبِ من أجلِ الرسولِ حبيبُ

والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ، يحبُّ العلماءَ الربانيين، والدعاة الصادقين، ويُقَدِّرُهم، ويعرِفُ لهم فَضلَهم وقدرَهم، ويُطِيعُهُم في المعروفِ، ولا يتَتَبَّع زلَّاتِهم، ويَرجعُ إليهم في المُلِمَّاتِ، ويَصدُرُ عَن فَتاويهم في المُهِمَّاتِ، ويَنْشُرُ حَسَنَاتِهم، ويَذبُّ عنهم؛ لمكانتِهم وصلتِهم بميراث حبيبه ﷺ.

۞ والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ لا يَكلُّ ولا يَملُّ من ترطيب لسانه وتعطيره، بكثرة الصلاة والسلام على حبيبه ﷺ في كلِّ حينٍ، ويُبَادِرُ إلى ذلك عند سماع اسمه الشريف ﷺ.

---

(١) هو قول الصِّدِّيق ﷺ؛ جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٣٧١٢)، و مسلم (١٧٥٩).

وكيف يملُّ ويكلُّ؟! والصلاة على الحبيب ﷺ هي جلاء الأبصار، ونور البصائر، وبهجة القلوب، وراحة الأرواح، وقرة العيون، وانشراح الصدور، وهي جالبة السرور، وبها ذهاب الهموم والغموم، وهي مِسكُ المجالس، وطِيبُ الحياة، وزكاة العمر، وجمال الأيام، وهي علامة الحبِّ، وشاهدُ المتابعة، وبرهانُ الموالاة، والبخيلُ كلّ البخيل مَنْ ضنَّ بها[١]، والذلُّ والرَّغام مصير من امتنع عنها[٢].

☼ **والمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ** يغارُ على محبوبِه أن يُسيءَ إليه أو يَنتقِصَه أحدٌ، كائنًا من كان، ويغضبُ لذلك أشدَّ الغضبِ؛ ولكنَّه غضبٌ إيجابي، وليس غضبًا مندفعًا بلا رشد أو هدف.

غضبٌ يتأسى فيه بمحبٍّ صادقٍ، وقف في وجه أبيه عندما أساء إلى حبيبه ﷺ فمنع أباه من دخول المدينة، وقال له: والله، لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم أيهما الأعزُّ من الأذلّ: أنت أم رسولُ الله ﷺ؟! فيقول له أبوه: تصنع هذا بأبيك؟!... فمرَّ رسولُ الله ﷺ وعبدُ الله واطئٌ على يد راحلة أبيه، وابن أُبَيٍّ يقول: لأنا أذلُّ مِنَ الصبيان، لأنا أذلُّ مِنَ النساء، فقال رسول الله ﷺ: «**خلِّ عن أبيك**» فخلَّى عنه، وقال له: «أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ، فجز الآن»[٣].

---

(١) قال ﷺ: «**الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**» أخرجه الترمذي (٣٥٤٦)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨١١).

(٢) قال ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**» أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨١٠). يقال: (رَغم أنفه)؛ بفتح الغين وكسرها؛ من الرَّغام بفتح الراء: وهو التراب؛ أي ألصقه بالرَّغام وأذلَّه.

(٣) قصة عبد الله بن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلولَ مع أبيه عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلولَ؛ انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢)، وتاريخه (٤/ ١٥٨).

=

فيمنع أباه من دخول مدينته، حتى يأذن له حبيبه ﷺ ليعلم أبوه - ولتعلم الدنيا كلُّها - أن العزَّة لله ولرسولِه ﷺ، وأن الذي يتجرأ على الإساءة لمقامِ حبيبِنا ﷺ لا مكان له بيننا، ولا كرامة له أبدًا.

☼ هذا هو الغضبُ الذي نريده من المحبِّ الصادقِ؛ ليدفعه لأن يتركَ بعضَ مألوفاتِه ومحبوباتِه...

☼ غضبٌ يجعلُ كلَّ محبٍّ يعلنُها واضحةً مجلجلةً: والله، لا يدخلُ جوفي شيءٌ من بلدٍ أساء إلى حبيبي وقرة عيني ﷺ حتى يأخذوا على يد من سوَّلَت له نفسه الخبيثة فعل ذلك؛ ليكونَ عبرةً لكلِّ من تُسوِّلُ له نفسُه الخبيثةُ الإساءةَ إلى حبيبنا ﷺ مرة ثانية.

وليعلموا أن رسولَنا وحبيبَنا ﷺ أحبُّ إلينا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا!! بل من أنفسنا وأرواحنا ومهجنا؛ فكيف ببطوننا وملذاتنا وبعض شهواتنا؟!!

إمامَ المرسلين فِداك رُوحي ... وأرواحُ الأئمةِ والدُّعاةِ
رسولَ العالمين فِداك عِرضي ... وأعراضُ الأحبةِ والتقاةِ
ويا عَلَمَ الهُدى يفديك عُمري ... ومالِي يا نبيَّ المكرُماتِ
وعِرضُك عِرضُنا ورؤاك فينا ... بمنزلة الشهادة والصلاةِ
رفعت منازلَ وشرحت صدرًا ... ودينُك ظاهرٌ رغم العُداة

=

وانظر أيضًا: مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، لإبراهيم قريبي (١/ ١٩٣)، وهي عند الترمذي (٣٣١٥) بلفظ: «فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: والله لا تنقلب حتى تُقِرَّ أنك الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل». وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٤١)، وأصل القصة في الصحيحين؛ البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).

وغرسُك مثمرٌ في كل صقع ... وهديك مشرقٌ في كل ذاتِ
وأعلى اللهُ شأنَك في البرايا ... وتلك اليومَ أجْلَى المعجزات
رحيمٌ باليتيمة والأُسَارى ... رفيقٌ بالجهُولِ والجُنَاةِ
كريمٌ كالسَّحابِ إذا أهلَّت ... شجاعٌ هدَّ أركانَ البُغاة
بليغٌ علَّم الدنيا بوحي ... ولم يقرأْ بلوح أو دَواة
حكيمٌ جاء باليسرى شفيقٌ ... فلانَت منه أفئدةُ القُساة[1]

☼ وأخيرًا، فالمحبُّ الصادقُ الذي يريد نُصرةَ حبيبِه ﷺ يعتزُّ بعقيدته وشريعته، ويتميز بشخصيته وفكره، ويأنف أن يكون إمعة مقلدًا لأنماط وعادات سلوكية وفكرية، لأناس لا يؤمنون بدينه، ولا يُعَظِّمُون حبيبَه ﷺ.

* * *

=

(١) للشاعر صالح بن علي العمري، نقلاً عن: http://nosra.islammemo.cc/

فهرس الموضوعات

* * *